الفرائد في العقائد

تأليف

العارف بالله والوارث المحمدي

الشيخ السيد محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي

رضي الله عنه

عني به

الدكتور أمير مصطفى خرنوب

يطبع لأول مرة

Scanned with CamScanner

الفرائد في العقائد

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

مكتبة دار الدقاق

سوريا ـ دمشق ـ الحلبوني

00963 932509370

00963 11 2246031

الفرائد في العقائد

تأليف

العارف بالله والوارث المحمدي

الشيخ السيد محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي

رضي الله عنه

عني به

الدكتور أمير مصطفى خرنوب

يطبع لأول مرة

مكتبة دار الدقاق

الإهداء

إلى روح سيدي ومولاي فضيلة الشيخ المرحوم عبد الحكيم بن سليم عبد الباسط رحمه الله ورضي عنه وعنا به ونفعنا بعلومه وكتبه وتراثه.

الذي زرع في قلبي محبة السادة الرفاعية الأعلام قدست أسرارهم وغرس في روحي التولعَ بقراءة كتبهم والبحث عنها وحب نشرها بين المسلمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا لعقيدة التوحيد السليمة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي دلنا على الطريقة القويمة، وعلى آله وأصحابه أتباع هذه الدعوة الحكيمة.

ورضي الله عن أئمة هذا الدين المجيد، الذين فهموا عن الله الفهم السديد، وألفوا في هذا المنهج الرشيد، لاسيما منهم أئمة علم العقيدة الإسلامية، وعلى رأسهم الإمام الأشعري والإمام الماتريدي رضي الله عنهما وجزاهما الله عن الأمة خير الجزاء وأتمه وأعمه،

وبعد:

فإن هذا الكتاب النافع الذي بين أيدينا والمسمى باسم: (الفرائد في العقائد) في علم التوحيد، ألفه مؤلفه بأسلوب بارع بديع، لم يأت على نسق كتب هذا العلم المعهودة، إنما جاء نسيج وحده، حيث أتى المؤلف في كتابه بخمس عشرة فريدة

صدرها بهذه الكلمة (فريدة)، جاءت هذه الفرائد لتشمل مهمات علم العقيدة الإسلامية على وفق عقيدة ومنهج أهل الحق أهل السنة والجماعة، ولم تخرج في تبيانها عن منهج الأشاعرة والماتريدية قيد أنملة، حيث بحثت في الإيمان وأركانه، والذات والصفات والمتشابهات، والسمعيات، والكلام حول الأنبياء وصفاتهم وغير ذلك من مهمات مسائل علم التوحيد، وقد جاء على نمط فريد وطراز رائع، حاله حال كل مؤلفات السيد محمد أبي الهدى الصيادي، وقد بث المؤلف في الكتاب روح الإمام الرفاعي قدس سره حيث ضمنَّه في كل فريدة من الفرائد شيئاً من أقوال الإمام المتعلقة بالمبحث المدروس، فجاء الكتاب فريداً في بابه، متميزاً برشاقة العبارة، وأناقة الإشارة، وجودة النقل، ويبدو - والله أعلم - فيما يظهر لي أنَّ هذه الفرائد قد ألقاها المصنِّف رحمه الله تدريساً وشرحاً أمام السُّلطان العثماني عبد الحميد الثَّاني، حيث ورد في ترجمته الرَّسمية الموجودة في آخر كتابه «التَّاريخ الأوحد» ما يلي بنصِّه:

(وفي سنة ١٢٩٦هـ أمر جلالة مولانا الخليفة الأعظم بقراءة درس العقائد والحديث في الحضور الشَّريف بصورة خصوصيَّة وذلك بمقتضى إرادة سنيَّة.

وفي سنة ١٣٠٥هـ أمره جلالة أمير المؤمنين بتلاوة شرح العقائد في الحضور العالي بصورة خصوصيَّة) اهـ.

فمن هنا يتبيَّن أنَّ هذا الكتاب ربَّما يكون هو مقرر درس العقائد الَّذي قرره سيِّدنا السَّيِّد أبي الهدى بحضرة السُّلطان عبد الحميد.

هذا وإنني أحببت أن يطلع على هذا الكتاب كل المحبين لطريق القوم أهل الله، المنتمين للطرق الصوفية العلية محبة وسلوكاً واتباعاً ونهجاً، خاصة منهم أتباع الطريقة الرفاعية، فالتراث الرفاعي تراث صوفي إسلامي إنساني، فقمت بطباعته للمرة الأولى فهو كتاب لم يطبع سابقاً، وهو جدير بالخدمة والتحقيق والشرح ولا أدعي هذا الشرف، بل هي خدمة متواضعة للكتاب حسب ضعف همتي وفتور عزمي، لكن أجعله وسيلة قرب لله ولأهل الله خاصة منهم المؤلف ﵁، وقد قدمت في البداية بهذه المقدمة البسيطة لتبيين شيء من أهمية هذا المؤلف ومصنفه، ولأضع قدم القارئ على بداية الطريق لفهم الكتاب ومسائله، ثم ترجمت بترجمة موجزة للمصنف توضح شيئاً مقتضباً من منزلته ومكانته العلمية، ثمَّ أتبعت ذلك بالمنهج الَّذي سلكته في خدمة هذا الكتاب، ليظهر بأجمل حلَّة.

وبيَّنت شيئاً عن المخطوط وصفته وكيفية الحصول عليه.

هذا والتَّوفيق بيد الله، أسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، راجياً السَّداد في الأقوال والأفعال، فإن صادف القارئ الكريم خطأ فليلتمس لي العذر، وليصلحه، وليخبرني بذلك، وإن صادف صواباً فأرجو منه دعوة صالحة بظهر الغيب.

هذا والله أعلى وأجلُّ وأعلم. والحمد لله ربِّ العالمين.

منهج التحقيق

١- كتابة المخطوط وفق الرسم الإملائي الحديث.

٢- وضع علامات ترقيم مهمة.

٣- ضبط الآيات القرآنية وفق الرسم العثماني وتشكيل ما أشكل من بعض العبارات.

٤- إضافة عناوين موجزة لكل فريدة من الفرائد.

٥- التعريف بالأعلام ما أمكن بشكل موجز جداً.

٦- التخريج:

أ- عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها بالسورة والآية.

ب- تخريج الأحاديث النبوية بشكل موجز جداً وبدون ذكر كل المصادر.

ج- لم ألتزم ذكر درجة الحديث.

وصف النسخة الخطية للكتاب

اعتمدت على مخطوطة واحدة عثر عليها بعد بحث مستفيض وبجهود الأخ الفاضل الشيخ رفيق عقيل حفظه الله من مكتبة جامعة برنيستون في ولاية نيوجيرسي من مجلد رقم (٥٧٩٧) ضمن قسم المخطوطات العربية برقم (٢٣٥٥) وهو مخطوط (الفرائد في العقائد) تأليف السيد الشيخ محمد أبي الهدى الصيادي ﷺ، وهي نسخة تامة، جيدة الخط، تقع في (٥١ لوحة) في كل لوحة صفحتان في كل صفحة (٢١ سطراً)، تاريخ المخطوط في المكتبة (١٦/ ٤/ ١٩٨٠).

ترجمة موجزة للمؤلف

هو الإمام السيد شيخ الإسلام في عصره محمد أبو الهدى ابن السيد حسن وادي الصيادي الرفاعي الخالدي رحمه الله ورضي عنه، وهو من ذرية الإمام الرفاعي وله اتصال نسبي بسبطه ابن بنته السيدة زينب الإمام الصياد قدس سره، وله نسبة للصحابي الجليل خالد بن الوليد ﷺ، ولد سنة ١٢٦٦هـ في

قرية خان شيخون ثم تدرج بالمراتب العلمية حتى صار شيخ الإسلام في عصره ونال أعلى رتبة علمية زمن الدولة العثمانية آخر عهدها وكانت له صلة وثيقة بالسلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله، شيخه السيد محمد مهدي بهاء الدين الصيادي الرفاعي الشهير بالرواس قدس سره دفين بغداد، وقد صار مظهر التصوف الإسلامي الصحيح في عصره، وقد أحيا الله على يديه ما اندرس من طريق القوم أهل الله قاطبة، والطريق الرفاعي خاصة، وقد أشار الإمام الرفاعي إليه بعبارة (حتى يقوم قائمنا ألا وهو البدوي الطرز المحمدي الكنز نائب فتانا الأشعث الأغبر)، فالسيد أبو الهدى هو قائم أهل البيت الرفاعي في عصره، وهو خلاصة أهل البيت النبوي كذلك، حيث جدد طرق القوم أهل الله قاطبة، وأحيا ذكرهم، وأبان حجتهم ووضح محجتهم، وهي خصوصية حباه الله تعالى إياها، حيث أظهره في دار الخلافة من مستشاري السلطان عبد الحميد، ونصره على أعدائه، وحماه ووقاه وسدده وأيده وأظهره وأعانه، ببركة جده رسول الله ﷺ وبتوجهات وأنظار والده البركة السيد حسن وادي قدس سره وبتوجيهات شيخه السيد الرواس قدس سره، وبرعاية جده الإمام الرفاعي قدس سره.

وقد ألف السيد محمد أبو الهدى مؤلفات كثيرة نافعة ماتعة طبع جزء كبير منها في حياته إما في مطابع دار الخلافة أو في بيروت أو في القاهرة وقد استقصيت أكثر من مائتي عنوان لمؤلفاته التي تتروا ح بالحجم بين مجلدات عدة وبين رسائل صغيرة لا تتجاوز العشر صفحات، وقد أتت هذه المؤلفات بأسلوب فريد بديع وبعبارة سهلة مفهومة وفي جميع أبواب العلم الشرعي من تفسير للقرآن الكريم وسيرة نبوية وعقيدة إسلامية وفقه حنفي بالإضافة إلى كتب التصوف الإسلامي والأخلاق والآداب والرقائق والتزكية وكتب الأنساب والتاريخ وجاء بعضها متخصصاً بالتراث الرفاعي والتاريخ الأحمدي بالإضافة لبعض المناظرات والإلهامات والتحقيقات وبعض دواوين الشعر التي اختص أحدها بمديح سيد الوجود عليه الصلاة والسلام وبعضها في الرقائق والمواعظ وبعضها في مدح الإمام الرفاعي وأئمة الطرق رضوان الله عليهم أجمعين.

ومن ضمنها هذا الكتاب الذي أتشرف بخدمته رغم قصوري وفتوري وعجزي وتقصيري إلا أنني أحببت أن يظهر للناس كافة إحياءً لهذا التراث الصوفي العظيم.

وقد قيض الله - لنشر تراث هذا السيد وتراث شيخه السيد الرواس - شيخنا المرحوم الفاضل المتفاني بحب السادة الرفاعية الشيخ السيد عبد الحكيم عبد الباسط رحمه الله وجمعنا به في مستقر رحمته، فقد ورثت عنه الولع بكتب هؤلاء السادة وحب استقصاء المفقود منها وطبعها ونشرها، فقد طبع في حياته المباركة الكثير من الكتب والرسائل التي ألفها السيد الرواس والسيد أبو الهدى رحمهما الله ونفعنا بهما.

توفي المؤلف عام (١٣٢٧هـ) ودفن في جزر الأمراء ثم نقل جثمانه إلى دار الفتوى في حلب بعد زمن من وفاته.

هذه كلمات موجزة في هذا الإمام العظيم لا تفي بجزء من فضله، فهو بحاجة إلى دراسة مستقلة وافية كافية تستوعب كل مراحل حياته المباركة.

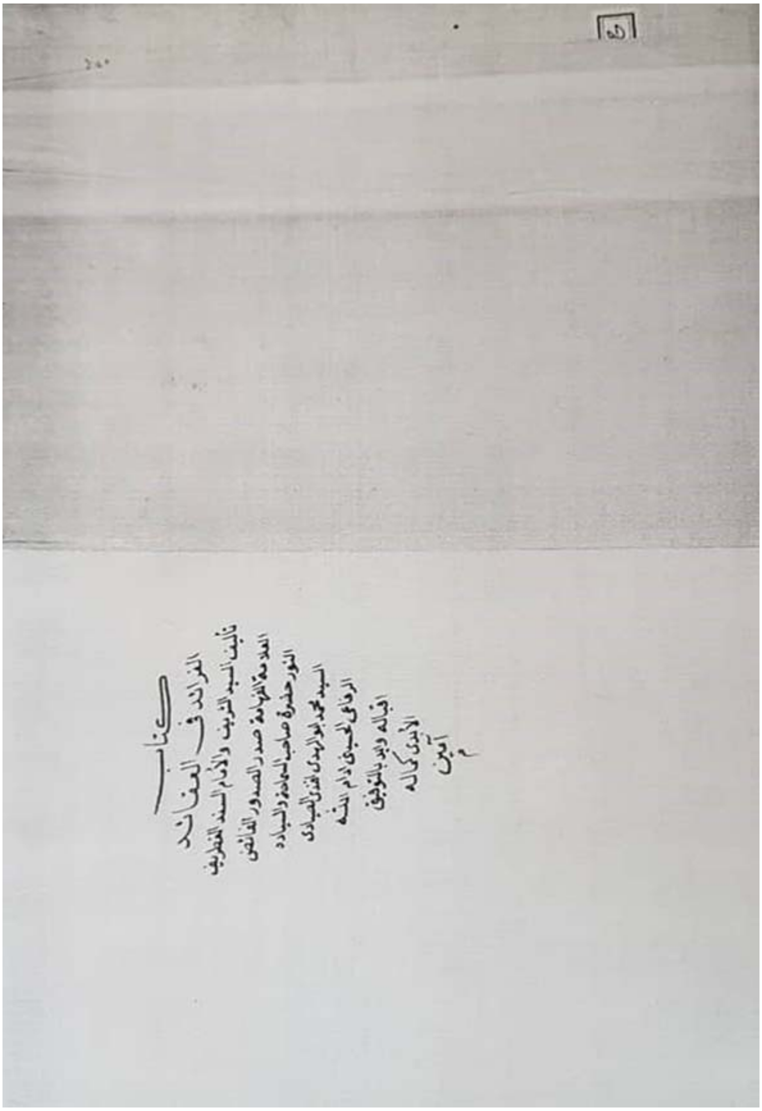

كتاب
الفرائد في العقائد
تأليف السيد الشريف والإمام السند الغطريف
العلامة الفهامة صدر الصدور الفائض
النور حضرة صاحب السماحة والسيادة
السيد محمد ابو الهدى افندي الصيادي
الرفاعي الحسيني دام الله
اقباله وايد بالتوفيق
الأبدي كماله
آمين
م

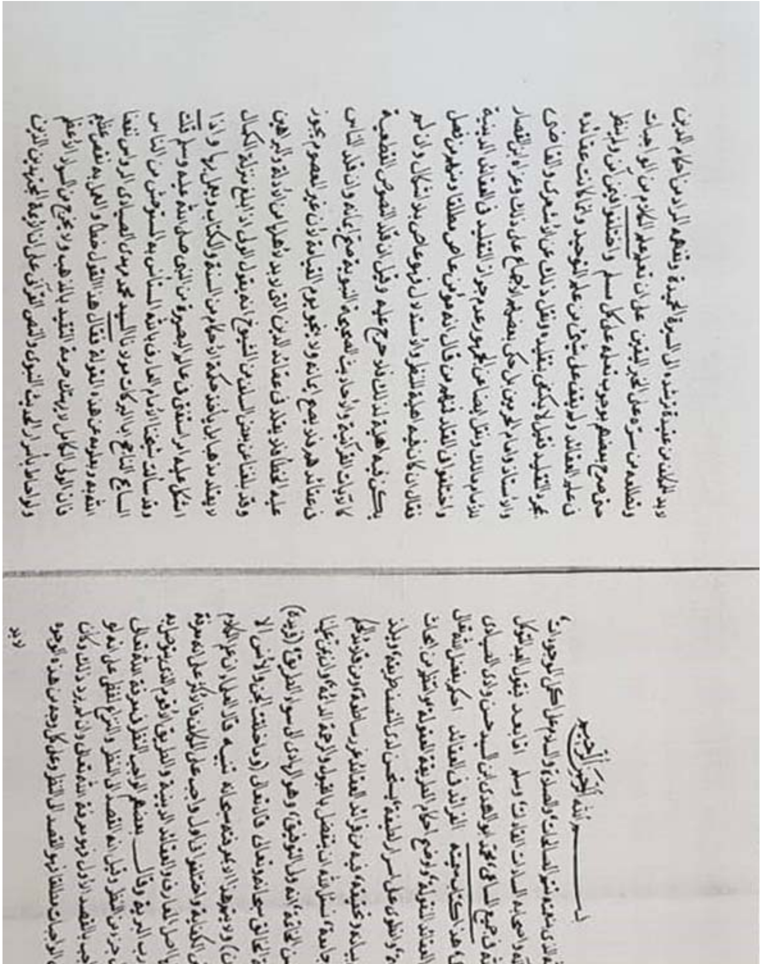
بسم الله الرحمن الرحيم

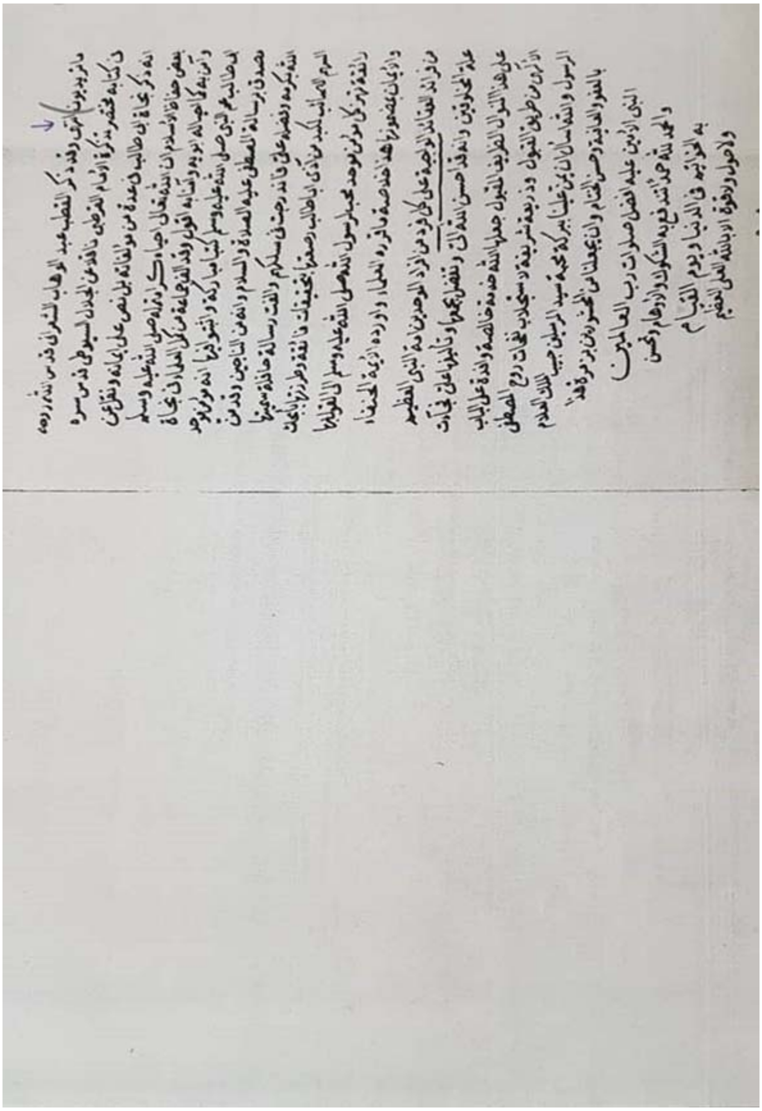

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أكمل الموجودات، وعلى آله وأصحابه السادات القادات وسلم، أمَّا بعد:

فيقول العبد المتوكل على الله في جميع المساعي، محمد أبو الهدى ابن السيد حسن وادي الصيادي الرفاعي:

هذا كتاب سميته: **(الفرائد في العقائد)** أحكم بفضل الله تعالى أساس العقائد المنقولة، وأوضح أحكام الطريقة المعقولة، وانتظم من أبحاث شريفة، وانطوى على أسرار لطيفة، يستحسن لدى المنصف طريقه، ويلذُّ للعاقل بيانه وتحقيقه، فيه من فرائد العقائد غرر ساطعة، ومن قلائد الحكم أساليب جامعة، نسأل الله أن يتفضل بالقبول والرحمة الدائمة، وأن يمنَّ علينا كرمَاً بحسن الخاتمة، إنَّه ولي التوفيق، وهوالهادي إلى سواء الطريق.

١.(فريدة في معرفة الخالق سبحانه وتعالى):

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: ٥٦]، ولا يتمُّ هذا إلَّا بمعرفته سبحانه، تنبيه: قال العلماء: إنَّ علم الكلام من فروض الكفاية، واختلفوا في أول واجب على المكلف، فالأكثر على أنه معرفة الله؛ لأنَّها أصل المعارف والعقائد الدينيَّة، والطريق الأقوم الذي يتوصل به العبد إلى ربِّ البريَّة، وقال بعضهم: الواجب النظر في معرفة الله تعالى، وقيل: أول جزء من النظر وقيل إنه القصد إلى النظر والنزاع لفظي على أنه لو أريد الواجب بالقصد الأول معرفة الله تعالى، وان لم يرد ذلك وكان المراد أول الواجبات مطلقًا؛ فهو القصد إلى النظر وعلى كل وجه من هذه الوجوه [٢/ب] لا بدَّ للمكلف من عقيدة ترشده إلى السيرة الحميدة وتفهمه المراد من أحكام الدين، وتطلعه من سرِّه على الخبر اليقين، على أن تعلم علم الكلام من الواجبات، حتى صرح بعضهم بوجوب تعلمه على كل مسلم، واختلفوا فيمن آمن ولم ينظر في علم العقائد،

ولم يقف على شيءٍ من علم التوحيد، وإنَّما كانت عقائده بمجرد التقليد، فقيل: لا يكتفى بتقليده، ونقل ذلك عن الأشعري(١) والقاضي(٢) والأستاذ(٣) وإمام الحرمين(٤)، بل حكى بعضهم

---

(١) الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري، مؤسس مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة ٢٦٠هـ، تلقى مذهب الاعتزال ثم رجع عنه وجاهر بخلافه، توفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ.

(٢) القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القسم، المعروف بالباقلاني البصري المتكلم المشهور؛ كان على مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، ومؤيدًا اعتقاده وناصرا طريقته، وسكن بغداد، وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره، وكان في علمه أوحد زمانه وانتهت إليه الرياسة في مذهبه، وكان موصوفا بجوده الاستنباط وسرعة الجواب، وسمع الحديث؛ وكان كثير التطويل في المناظرة مشهورا بذلك عند الجماعة، وتوفي القاضي أبو بكر المذكور آخر يوم السبت، ودفن يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة ببغداد، رَحِمَهُ اللهُ، وصلى عليه ابنه الحسن، ودفنه في داره بدرب المجوس، ثم نقل بعد ذلك فدفن في مقبرة باب. حرب.

(٣) الأستاذ: أبو إسحاق الإسفَرَاييني إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الأصولي المتكلم الشافعي لقبه ركن الدين له مناظرات مع المعتزلة، توفي سنة ٤١٨هـ بنيسابور قيل إنه بلغ رتبة الاجتهاد، له عدة مصنفات منها: الجامع في أصول الدين.

(٤) إمام الحرمين: ٤١٩ - ٤٧٨ هـ = ١٠٢٨ - ١٠٨٥ م عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين:

=

الإجماع على ذلك، وعزاه ابن القصار(١) للإمام مالك(٢)، ونقل أيضًا عن الجمهور عدم جواز التقليد في العقائد الدينيَّة واختلفوا في المقلد، فمنهم من قال: إنَّه مؤمن عاصٍ مطلقًا، ومنهم من فصل فقال: إن كان فيه أهليَّة للنظر والاستدلال فهو عاصٍ بلا إشكال، وإن لم يكن فيه أهليَّة لذلك فلا حرج عليه، وقيل: إن قلَّد النصوص القطعيَّة كالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبويَّة صحَّ إيمانه، وإن قَّلد الناس في عقائدهم فلا يصح إيمانه ولا ينجو يوم القيامة؛ لأنَّ غير المعصوم يجوز عليه الخطأ فلا يقلد في عقائد الدين التي لا بد لأهلها من الأدلة والبراهين،

= أعلم المتأخرين، من أصحاب الشافعي. ولد في جوين (من نواحي نيسابور) ورحل إلى بغداد، فمكة حيث جاور أربع سنين. وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس، جامعًا طرق المذاهب،ثم عاد إلى نيسابور، فبنى له الوزير نظام الملك " المدرسة النظامية " فيها،وكان يحضر دروسه أكابر العلماء، له مصنفات كثيرة، توفي بنيسابور.

(١) ابن القصار: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد البغدادي المالكي، توفي سنة ٣٩٧هـ، شيخ المالكية في عصره، ولي قضاء بغداد.

(٢) الإمام مالك: إمام دار الهجرة شيخ الإسلام مالك بن أنس بن مالك بن عمرو بن الحارث الأصبحي (٩٣-١٧٩هـ) أحد أئمة الإسلام المشهورين وصاحب مذهب فقهي، دفن في البقيع.

وقد بلغنا عن بعض السلف من الشيوخ أنَّه يقول: الوليُّ إذا بلغ منزلة الكمال لا يقلد مذهبًا، بل يأخذ حكمة الأحكام من السنة والكتاب ويعمل بها، وإذا أشكل عليه أمر استفتى في عالم البصيرة من النبي ﷺ، قلت: وقد سألت شيخنا الإمام العارف بالله المستأنس به المستوحش من الناس السائح الناجح أبا البركات مولانا السيد محمد مهدي الصيَّادي الرواس(١) - نفعنا الله به وبعلومه - عن هذه المقولة فقال: هذا القول خطأ، والعمل به نقص عظيم؛ فإنَّ الولي الكامل لا يهتك حرمة التقيد بالمذهب، ولا يخرج من السواد الأعظم، ولو أحاط بأسرار الحديث النبوي والنص القرآني على أنَّ الأئمة المجتهدين الذين [٣/أ] دوَّنوا لنا المذاهب المباركة وقرروها هم أعلم من ذلك

(١) الرواس (١٢٢٠- ١٢٨٧ هـ = ١٨٠٥ - ١٨٧٠م) محمد مهدي بن علي الرفاعي الحسيني الصيادي، بهاء الدين المعروف بالرواس: الرفاعي الثاني، ولد في سوق الشيوخ من أعمال البصرة، وانتقل إلى الحجاز في صباه فجاور بمكة وبالمدينة، ورحل إلى مصر، وعاد إلى العراق سنة ١٢٥١، وقام برحلة إلى إيران والسند والهند والصين وكردستان والاناضول وسورية، وتوفي ببغداد، وهو شيخ المؤلف الإمام محمد أبي الهدى الصيادي وله مؤلفات نثرية ودواوين شعر متعددة.

الولي بمدارك السنة خبرًا، وإن حصل لذلك الولي الوقوف على مدارك السنة فهمًا وإلهامًا، فإنَّه لا يعتبر لا عنده ولا عند غيره إذا عارضه الخبر، نعم تعتبر هذه الأفهام والإلهامات في زوائد الأعمال من النوافل بشرط عدم معارضة الخبر، وأمَّا قولهم إنَّهم يستفتون من رسول الله فهو استفتاء زائد؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام ما قضى حتى بلَّغ وترك الأمة على محجَّةٍ بيضاء لا ضلال بعدها أبدًا، فكيف يستفتي عن شيء بلَّغه وأوضحه واستودعه علماء الأمة وهم الذين يسألون عنه في كل عصر؟ بشاهد قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: ٤٣]، نعم اجتهد الأئمة بعد توفر الأدلة والشواهد لديهم بترجيح بعض الأحكام المستنبطة من الأحاديث النبوية على بعضها، وانقطعت بعد ذلك رتبة الاجتهاد؛ لعدم توافر شروطها في أحد بعد السلف من المجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين، وإنَّ كمَّل الأولياء قدست أسرارهم العلية، وإن بلغت مقاديرهم رتبة مقادير الأئمة المجتهدين فضلًا وعلمًا وإرشادًا، لكن لم تصل إليهم أخبار السنة والكتاب كما وصلت إلى الأئمة المجتهدين تلقيًا وإسنادًا، فإذًا هم مكلفون بالأخذ عن الأئمة

المجتهدين ولا يلتفت إلى قول من أسقط التقليد في الأحكام اكتفاءً بالكتاب والسنة؛ فإنَّ ذلك الرجل جهل أنَّه قلد بتلقي السنة والكتاب وأراد بعد كل هذا أن ينزع طوق التقليد الشريف من عنقه طيشًا على أنَّه لو أنكر عليه المنكر الحديث الذي يرويه ويستدل به لاحتاج إلى إسناد الحديث، ومتى أسنده فقد قلَّد راويه، أعني بأخذ الحديث على أنَّه لم يكن يعلم ذلك الحديث قبل أخذه عمَّن أسنده إليه)، والتقليد الذي كثر فيه القال والقيل ينتهي عند علماء الكلام إلى وجهين:

الوجه الأول: قولهم بعدم صحة التقليد في العقائد [٣/ب] الدينيَّة، فإن كان المقلِّد قادرًا على النظر والاستدلال وقلَّد فهو مؤمن عاصٍ، وإن لم يكن قادرًا على النظر والاستدلال فلا يكون عاصيًا، ومنهم من حرم النظر ومنهم من أوجبه، وقال: إنَّ تركه معصية، وأطال الجماعة في طرق هذا الوجه.

الوجه الثاني: تكفير المقلِّد عند قوم وجعله عاصيًا عند آخرين، والقول بإيمانه البتة بلا تردد عند طائفة أخرى، وملخص الصواب أنَّ التكفير مردود لشموله العوام الذين هم غالب الأمة، والقول بالمعصية فيه ما فيه؛ لأنَّ من تلقى علم العقائد

من شيخ لا يلزم من تلقيه عنه أن يكون مقلدًا له حتى يجري الخلاف في صحة إيمانه، أو جعله عاصيًا، وإنَّما هو بمنزلة من سأل رجلًا عن الهلال فدلَّه عليه بتعريفات وإشارات وإراءة منزلة، ثم اهتدى إليه فأمعن النظر وتحققه وصار يخبر برؤياه عن يقين، وعلى هذا طبقات الأمَّة بلا شبهة؛ فإنَّهم يؤمنون بما أنزل الله على رسوله إيمانًا بتًا محضًا لا تمسَّه شوائب الشبهات إيقانًا وإذعانًا بعصمته وأخذًا عنه، وانقيادًا لأمر الله تعالى وإيمانًا به سبحانه، وإلا فلا يقلدون غير المعصوم اعتمادًا على قوله، ولا يعملون بالهوى بل يتبعون النص القرآنيَّ والحكم الرباني الذي أنزله على عبده المصطفى الذي لا ينطق عن الهوى، هذا ولا ريب في أنَّ الأولياء لهم شرف الملاقاة المعنويَّة مع الحضرة الجليلة النبويَّة، إلا أنها تشتغل أبصارهم وبصائرهم باقتباس أنوار جماله عن السؤال عمَّا أوضحه لأمته بالأسانيد الصحيحة من جليل أقواله وأفعاله، وهذا القول الصحيح الصريح المبرأ من شوائب الاعوجاج وشُبه التلميح، وحيث أن الأمر الدينيِّ يلزم كل عاقل أن يطلق عنان إذعانه لعلم ما يصلح به عقيدته، ويزكي به شرف إيمانه، فنقول الإيمان كما ورد في الخبر

الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه قال: «**الإيمان [٤/أ] أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**»[(١)].

أمَّا الإيمان بالله، فيتوقف على أمور ثلاثة: الأول: العلم بوجوده تعالى وقدمه، والثاني: العلم بصفاته، والثالث: العلم بأنَّه لا شريك له في ذاته وصفاته، أمَّا العلم بوجوده، إمَّا أن يكون وجوده من ذاته وهو واجب الوجود، وإما أن يكون من غيره وهو ممكن الوجود، فكل ممكن الوجود يحتاج في وجوده إلى غير ممكن الوجود، و غير ممكن الوجود هو الواجب الوجود، فقولنا: كل الممكن الوجود محتاج إلى غيره، قضية كليَّة تعم جميع أفراد الممكن الوجود، فيكون كل الممكن الوجود داخلًا فيه، وذلك الغير لا يكون إلا الواجب الوجود وهو البارئ تعالى، وهذا برهان قاطع وكلما يكون ذاته مقتضية لوجوده لا يقبل العدم؛ لاجتماع النقيضين، وكل ما لا يجوز عليه العدم وجب له القدم؛ فالباري تعالى موجود بوجود قديم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، والترمذي وابن ماجة وأبو داود في سننهم.

لا أول له ولا آخر له، وللباري تعالى صفات بعضها ثبوتيَّة، وهي: إمَّا حقيقيَّة: كالعلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام، أو إضافيَّة: كالعلو والكبر، والمجد والرفعة، وبعضها سلبيَّة: مثلها أنَّه تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا بعرض، ولا يحلُّ في مكان ولا يجري عليه زمان إلى غير ذلك، قال المشايخ: هذه الصفات كلها زائدة على ذاته تعالى، خلافًا للفلاسفة والمعتزلة فإنَّهم يقولون بأنَّ صفاته عين ذاته، وهذه الصفات الثمانيَّة كلُّها صفات حقيقيَّة بخلاف سائر الصفات فإنَّها نسب وإضافات بينه وبين العالم، وأمَّا القدرة: فهي صفة حقيقيَّة، يصح منها إيجاد العالم أو تركه، وأمَّا العلم: فهو صفة حقيقيَّة توجب تمييز الأشياء لمن قامت به تمييزًا لا يحتمل النقيض، وأمَّا الحياة: فهي صفة حقيقيَّة يصحُّ معها القدرة والعلم، وأمَّا الإرادة: فهي [٤/ب] صفة حقيقيَّة توجب تخصيص أحد المقدورين بالوجود أوبالعدم، وأمَّا السمع والبصر: فهما معلومان من الدين ضرورة لا يكونان بالآلتين المعروفتين، فيجب التصديق بهما والاعتراف بعدم العلم بحقيقتهما، وأمَّا الكلام: فهو صفة حقيقيَّة يخاطب بها الربُّ

عباده بالأمر والنهي وغير ذلك، وأمَّا البقاء: فهو استمرار الوجود ويرجع معناه إلى القدم، والصفات الحقيقيَّة كلها قديمة كذاته تعالى، إذ لا يمكن عدم اتصاف الذات بشيءٍ منها للزوم النقض في حقِّه تعالى، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وأمَّا بعض الصفات الإضافيَّة كالتخليق والترزيق والتوفيق وأمثالها حادثة؛ لأنَّها نسب وإضافات بين الله وبين الأشياء، والأشياء كلُّها حادثة، فهكذا النسب بينها تابعة لها، وأمَّا أفعاله تعالى: فهي اختياريَّة أي إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل، خلافًا للفلاسفة فإنَّهم يقولون: لا يمكن له ترك الفعل، وجميع الكائنات مخلوقة لله تعالى ابتداءً خلافًا للفلاسفة فإنَّهم يقولون: الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد، فما صدر من الله تعالى ابتداءً إلَّا العقل الأول وصدر من العقل الأوَّل العقل الثاني وهكذا إلى العقل العاشر، وصدر من كل عقل ونفس وفلك وفي الأفعال الاختياريَّة الإنسانيَّة، فإنَّهم يقولون: العبد خالق لأفعاله، وهذا خطأٌ محض؛ فإنَّ أفعال العباد منها ما يجري عليهم اضطرارًا ومنها ما يكون منهم اختيارًا، والكلُّ قائم بقدرته تعالى، والعبد مسؤولٌ عن الأفعال الاختياريَّة ولا يسأل عن الأفعال

الاضطراريَّة، والحق تعالى لا شريك له؛ لأنَّه لو أمكن الشريك للزم منه اجتماع علَّتين مستقلَّتين على معلولٍ واحد، وحينئذٍ فالمناقضة ظاهرة وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

تنبيه: اعلم أنَّ في هذا البحث مذاهب:

الأول: مذهب الأشاعرة وجمهور أهل السنة: وهو أنَّ الأشياء كلها واقعة بقدرة الله ابتداء من غير [٥/أ] واسطة، حتى الأفعال الاختياريَّة للإنسان.

الثاني: مذهب الفلاسفة: وهو أنَّ الله واحدٌ، ولا يصدر من الواحد إلا الواحد، فما صدر من الله ابتداء إلا العقل الأول، فهم لا يسندون الأشياء إلى الله تعالى ابتداءً، بل يقولون سلسلة الأسباب تنتهي إلى الله تعالى بوسائط.

الثالث: مذهب المعتزلة: وهو أنَّ الأفعال الاختياريَّة للعباد ليست واقعة بقدرة الله تعالى بل بقدرة للعبد وحده.

الرابع: مذهب الأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني(١): وهو أنَّ

(١) مرت ترجمته (ص١٧)

الأفعال الإنسانيَّة واقعة بمجموع القدرتين من غير ترتيب.

الخامس: مذهب إمام الحرمين: وهو أنَّ أفعال العباد واقعة بمجموع القدرتين لكن بالترتيب بأنَّ الله تعالى خلق قدرة العبد في العبد بقدرته، ثم العبد فعل بقدرته ثم المعتزلة ذهبوا إلى أنَّ الله تعالى ليس مريدًا للشر بناءً على أصلهم الفاسد وهو أنَّ القبيح لا يصدر من الله، والمعلوم القبيح والحسن صفتان راجعتان إلى القابل والفاعل لهما لم يتصف بشيءٍ منهما، كما أنَّ الصبَّاغ تارة يجعل الثوب أخضرًا وتارة يجعله أسودًا فالمتصف بالسواد والخضرة هو الثوب لا الصباغ، ومذهب أهل السنة أنَّ الأشياء كلها خيرها وشرها، حسنها وقبيحها، واقعة بقدرة الله تعالى وبعلمه وإرادته لكنَّه تعالى راضٍ بخيرها عن العباد وساخط بشرها لهم، وكلاهما - أعني الحسن والقبح - من أوصاف المخلوقين.

٢. (فريدة): الحسن والقبح:

وهنا ناسب أن نذكر شيئًا في الحسن والقبح، اعلم أن العلماء قد ذكروا أنَّ الحسن والقبح يطلقان على ثلاثة معان، **الأول**: كون الشيء ملائمًا للطبع ومنافرًا له، **والثاني**: كونه صفة كمال، وكونه صفة نقصان، **والثالث**: كون الشيء متعلق المدح عاجلًا والثواب آجلًا، وكونه متعلق الذم عاجلًا والعقاب آجلًا، فالحسن والقبح بالمعنيين الأولين يثبتان بالعقل اتفاقًا، وأمَّا بالمعنى الثالث فقد اختلفوا فيه، قال في التلويح: كلٌّ من الحسن والقبح يطلق [٥/ب] على ثلاثة معان، فبالمعنى الأول: الحلو حسن والمرُّ قبيح، وبالمعنى الثاني: العلم حسن والجهل قبيح، وبالمعنى الثالث: الطاعة حسنة والمعصية قبيحة لذواتها، أو لصفة من صفاتها فمنها ما هو ضروري كحسن الصدق النافع وقبح الكذب الضار، ومنها ما هو نظريٌّ كحسن الكذب النافع وقبح الصدق الضار، وفيه بحث من وجوه:

الأول: أن الحصر غير مستقيم وقد ذكروا لهما معانٍ أخر من ملاءمة الغرض ومنافرته، وما أمر الشارع بالثناء على فاعله

وبالذم، وما لا حرج في فعله وما فيه حرج، وما للقادر العالم بحاله أن يفعله وما ليس له ذلك قالوا: هذه المعاني إضافيَّة كالقبليَّة لا ذاتية كالسواد، وليس شيء منها محلًا للنزاع.

الثاني: أن الكلام في حسن الأفعال فلا يناسب ذكر المعنى الثاني ها هنا؛ لاختصاصه بالصفات على ما صرحوا به، لأنَّ المراد بالكمال حصول ما ينبغي للشيء ووصوله إلى ما يليق به، وبالنقصان عدم ذلك عمَّا من شأنه، ومن الظاهر أنَّ ذلك إنَّما يكون بالمعاني القائمة بالموصوف، الراسخة فيه دون الأفعال؛ فإنَّها سريعة الزوال فلا تعد في العرف كمالًا أو نقصانا إلَّا باعتبار ما يدل عليه من الأخلاق والملكات.

الثالث: أنَّ الحسن والقبح عند المتقدمين من المعتزلة(١) القائلين بكونهما لذوات الأفعال، وكذا عند الأكثرين القائلين بكونهما لصفات ذاتيَّة، ذاتيٌّ حقيقي تابع للوجود يتصف الفعل به

(١) المعتزلة: فرقة كلامية ضالة، ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري، غلَّبت العقل على النقل، أسسها عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وغيرهما، اندثرت أفكارها بعدما ضحدهم علماؤنا ولله الحمد، ومازال هناك من يحاول إحياء أفكارهم في عصرنا دون جدوى لأن الحق أبلج والباطل لجلج.

عند وجوده وجوبًا كالتحيُّز للجوهر ومثله لا يتخلف ولا يختلف بالاعتبار على ما صرحوا به، فلا حسن للكذب وإن جلب نفعًا ولا قبح للصدق ولو جلب ضرًا، وأمَّا الجبائيَّة فإنَّهم يقولون بثبوت القبح والحسن للصفات الاعتباريَّة؛ إذ ليس الحسن عندهم إلَّا باعتبار جلب المنفعة وليس القبح إلا باعتبار جلب المضرة، وليس للصدق والكذب حسن عندهم حتى يكون نظريًا بمعارضة حسن [٦/أ] جلب المنفعة قبح الكذب في نفسه، ومعارضة قبح جلب المضرة حسن الصدق في نفسه، واحتاج كل منهما إلى النظر والترجيح وبعد الكناية والتصريح أقول لك: ما أمر به الشارع الأعظم ﷺ وأثنى على فاعله وكان للقادر العالم بحاله إمكان فعله فهو حسن، وما نهى عنه الشارع وذم فاعله وكان للقادر العالم بحاله إمكان تركه فهو قبيح، وغاية الأمر بعد معمعة الفرق والجمع: الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع، وأمَّا شرط الإمكان في الأمرين المذكورين فقد قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] هذا نص القرآن ولم يكلفنا الشارع والشرع شيئًا فوق الإمكان والأصل في الكل موافقة الكتاب والسنة ولا يضيِّع ربك مثقال ذرة.

٣. (فريدة): مقالتان عظيمتان في التوحيد

هنا مباحث لطيفة تناسب المقام صدرت عن ألسن جماعة من أئمة العلماء والعاملين والفضلاء المتكلمين والأولياء العارفين والحكماء الصديقين رضي الله عنهم أجمعين، ولمَّا كانت تلك المباحث الشريفة شافية في بابها، كافية لطلابها أتينا منها تيمنًا وتبركًا بالمستطاع ونظمنا بهذا السلك المبارك ما وقع عليه الإجماع وحسبنا الله ونعم الوكيل، قال الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن اللبان(١) في كتابه: (ردُّ الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات): اعلم - هداني الله وإياك لما اختُلف فيه من الحق بإذنه - أنَّ ربنا سبحانه حيٌّ متكلم عالم مريد قدير ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، أحديٌّ

(١) ابْنُ اللَّبَّان مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ بن الحَسَنِ البَصْرِيّ الإِمَامُ، العَلَّامَةُ الكَبِيْر، إِمَامُ الفَرَضِيّين فِي الآفَاق، أَبُو الحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ بن الحَسَنِ البَصْرِيُّ، ابْنُ اللَّبَّان الفَرَضِيُّ، الشَّافِعِيُّ. :انتَهَى إِلَيْهِ عِلْمُ الفَرَائِضِ، صَنَّف فِيْهَا كتباً، وَتُوُفِّيَ فِي رَبِيْعٍ الأَوَّلِ، سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَع مائَة.

فلا أين؟ ولا تركيب لذاته، أزليٌّ فلا كيف؟ ولا ترتيب في صفاته، أبديٌّ فلا تناهي لجلاله وإكرامه، تنزه في سمعه وبصره وإدراكه وبطشه عن الجوارح، وعزَّ في قدرته عن الشريك والمعين، وجلَّ في إرادته عن الأغراض، وتنزَّه في كلامه عن الحروف والأصوات، وتعالى في استوائه عن الشبه والكون، وتقدَّس في علوِّه وفوقيَّته عن الجهات [٦/ب] ينزل بلا نقلة، ويأتي بلا حركة، وتراه أبصار المؤمنين بلا إدراك ولا إحاطة ولا حدَّ لقربه، لا ميل لحبه، ولا ثورة لغضبه، لا كيف له في رضاه وضحكه، ولا شفعية إلَّا بمعيَّته، ولا وتريَّة إلَّا بظهور قهره وأحديَّته، ولا بقاء إلا لأهل عنديَّته نفسه ذاته، وأم كتابه، ووجهه نور توحيده عند إقباله، وصورته مظاهر تعرفاته وظلل غمامه، ويده ويداه وأيديه أسماء حقائق يتصرف بها في مخلوقاته، وعينه وأعينه، آياته المبصرة القائمة بالحفظ والرعاية للمخصوصين من عباده، وقدمه قدم الصدق الذي يبشر به المؤمنين، وجنبه صحبته وكلاءته للذاكرين من أتباع النبيين، وهو الأول والآخر، فما من جوهر ولا عرض إلَّا وهو مبدوء بأوليَّته مختوم بآخريَّته، وهو الظاهر بحكمه في محكمه، الباطن

بعلمه في متشابه آياته وحِكَمِه، ظهر بمعيَّته في باطن وتريته فنشأت أعداد مصنوعاته، وبطن بقدم أحديَّته في أسماء الحوادث فرجعت بحقائق هوياتها إليه، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: ١٢٣]، لا شريك له في ملكه وهو يؤتي الملك من يشاء، ولا مثيل له في كنهه وله المثل الأعلى، تقدس عن النظير في الدنيا والآخرة، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القِيَامَة: ٢٢-٢٣]، وتنزَّه عن الجهات وهو الله في السماوات، وتعالى عن التشبيه، وله الآيات المتشابهات، يجتني معانيها أهل قربه في رياض جنات ذكره، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥]، انتهى. وقال سيدنا الغوث الأكبر والقطب الأشهر أبو العلمين قرَّة عينِ جده الإمام الحسين سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه[(١)] في مقدمة بعض مجالسه مناجيًا، وإلى

(١) أحمد بن علي الحسيني الرفاعي: (١١١٨-١١٨٢م/ ٥١٢-٥٧٨هـ) الإمام القدوة العابد الزاهد شيخ العارفين، أبو العباس، من أقطاب الصوفية، وإليه تنتسب الطريق الرفاعية، فقيه شافعي أشعري، يلقب بأبي العلمين والشيخ
=

طريق التوحيد الخالص داعيًا: الحمد لله الذي هو مفزع قلوب الموحدين [٧/أ] إذا انقطعت بها أطنبة الأسباب، وموئل قلق أفئدة الراجين إذا انسدت تجاه مؤملها الأبواب، الفرد الصمد الذي تعكف حاجات المحتاجين العارفين منهم والجاهلين بطبعها على عتبة قدرته القاهرة، والملك الباقي الذي تسطع شموس بقائه السرمديِّ، فتظهر في كل آونةٍ أعيان الفناء المحض بكل الذرات الباطنة والظاهرة، جلَّ من ذي سلطان غلبة حكمه لا تدفع، وتعالى من ذي شأن آيات قدرته لا تنزع، تحنُّ إليه طبيعة الكافر إذا انصرمت في أمره حيلته، وتتعرف إليه روح الجاحد إذا انقطعت في حيلته وسيلته، قدرتُه تحكمت فأوقعت طور العجز في كلِّ مخلوق طامس أو بارز، وعظمته تفردت فقطعت عن حضرة الفرديَّة طبع كلِّ فردٍ قويٍّ أو عاجز، هذه

= الكبير وأستاذ الجماعة، ولد في قرية حسن من أعمال واسط بالعراق وقد مات أبوه وأمه حامل به؛ فرباه خاله، كان كثير الاستغفار، عالي المقدار، رقيق القلب غزير الإخلاص، قبره في قرية أم عبيدة بالبطائح بين واسط والبصرة، من مؤلفاته: البرهان المؤيد وحالة أهل الحقيقة مع الله وشرح التنبيه في الفقه، وهو أحد أقطاب الأمة الأربعة مقبِّل يد المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه سنة ٥٥٥هـ على مرأى من الناس وهي كرامة منقولة عنه بالتواتر.

الهياكل الذي أبرزها رقمت الشُبه في عقول المبعودين، فعجزوا عن القطع بعدم الوحدانيَّة، وهذه الحقائق الذي طرَّزها محت الشكوك من قلوب الموحدين؛ فاقتدروا على فهم تنزلات الأوامر الربانيَّة، وبعد هذا العجز والاقتدار أسدلت ستائر العظمة على مدارك الدُّراك، فصاح بهم لسان الدهشة: العجز عن درك الإدراك إدراك، وأقرب المخلوقين وأقواهم على خوض هذا العجاج المشتبك والمهمه المفلق المحتبك قال: سبحانك ما عرفناك حقَّ معرفتك.

وقال ﵁ في كتاب عقائده(١): الحمد لله المبدئ المعيد الفعال لما يريد، ذي العرش المجيد والبطش الشديد الهادي صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد، السائق لهم إلى إتباع رسوله المصطفى ﷺ واقتفاء صحبه الأكرمين بالتأييد والتسديد، المتجلي لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ

(١) هي نفس عقيدة حجة الإسلام الإمام الغزالي التي ذكرها في (إحياء علوم الدين) حيث أملى الإمام الرفاعي على خلفائه ومريديه هذه العقيدة بحروفها.

شَهِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٧]، المعرف إياهم في ذاته أنَّه واحدٌ لا شريك له، فرد لا مثل له، [٧/ب] صمد لا ضدَّ له، متفرد لا ندَّ له، وأنَّه قديمٌ لا أول له، أزليٌّ لا بداية له، مستمرُ الوجود لا آخر له، أبديٌّ لا نهاية له، قيومٌ لا انقطاع له، دائمٌ لا انصرام له، لم يزل ولم يزال موصوفًا بنعوت الجلال، لا يقضى عليه بالانقضاء وتصرُّم الآماد وانقراض الآجال، بل هو الأوَّل والآخر والظاهر والباطن، وأنَّه ليس بجسم مصور ولا بجوهر محدود مقدر، وأنَّه لا يماثل الأجسام لا في التقدير ولا في قبول الإنقسام، وأنَّه ليس بجوهر ولا تحلُّه الجواهر، ولا بعرضٍ ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجودًا ولا يماثله موجود، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورىٰ: ١١]، ولا هو مثل شيء، وأنَّه لا يحدُّه المقدار ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات، ولا تكنفه السماوات، وأنَّه مستوٍ على العرش، على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده، استواءً منزهًا عن المماسة والاستقرار والتمكُّن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش وفوق كلٍّ إلى تخوم الثرى، فوقيَّة لا تزيده قربًا إلى

العرش والسماء، بل هو رفيع الدرجات عن العرش، كما أنَّه رفيع الدرجات عن الثرى، وهو مع ذلك قريب من كلِّ موجود، وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، فهو على كلِّ شيءٍ شهيد؛ إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام، وأنَّه لا يحلُّ في شيءٍ، ولا يحلُّ فيه شيء، تعالى عن أن يحويه مكان، كما تقدَّس عن أن يحده زمان، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان، وأنَّه بائنٌ بصفاته عن خلقه، ليس في ذاته سواه ولا في سواه ذاته، وأنَّه مقدَّس عن التغيُّر والانتقال، لا تحلُّه الحوادث، ولا تعتريه العوارض، بل لا يزال - في نعوت جلاله - منزهًا عن الزوال، وفي صفات كماله مستغنيًا عن زيادة الاستكمال، وأنَّه في ذاته معلوم الوجود بالعقول، مرئيُّ الذات بالأبصار [٨/أ] نعمة منه ولطفًا بالأبرار في دار القرار، وإتمامًا للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنَّه حيٌّ قديرٌ جبارٌ قاهرٌ، لا يعتريه قصورٌ ولا عجز، و﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، ولا يعارضه فناء ولا موت، وأنَّه ذو الملك والملكوت، والعزة والجبروت، له السلطان والقهر، والخلق والأمر، و﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ

﴿بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]، والخلائق مقهورون في قبضته، وأنَّه المتفرد بالخلق والاختراع، المتوحد بالإيجاد والإبداع، خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا يشذُّ عن مقدور، ولا يعزب عن علمه تصاريف الأمور، لا تحصى مقدوراته، ولا تتناهى معلوماته، وأنَّه عالم بجميع المعلومات، محيطٌ بما يجري من تخوم الأرضين إلى أعلى السماوات، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذرِّ في جو الهواء و﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧] ويطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر بعلم قديم أزليٍّ لم يزل موصوفًا به في أزل الآزال لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول أو الانتقال، وأنَّه مريدٌ للكائنات، مدبر للحادثات، فلا يجري في الملك والملكوت قليلٌ ولا كثير، صغيرٌ أو كبير، خيرٌ أو شر، نفعٌ أو ضر، إيمانٌ أو كفر، عرفانٌ أو نكر، فوزٌ أو خسر، زيادةٌ أو نقصان، طاعةٌ أو عصيان إلَّا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا يخرج عن مشيئته لفتةُ ناظر، ولا فلتة خاطر، بل هو المبدئ المعيد

الفعَّال لما يريد، لا رادَّ لحكمه، ولا معقِّب لقضائه، ولا مهرب لعبدٍ عن معصيته إلَّا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته إلَّا بمحبته وإرادته، لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة، أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك، وإنَّ إرادته قائمةٌ بذاته في جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفًا بها، مريدًا في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها [٨/ب] التي قدرها، فوجدت في أوقاتها كما أراده في أزله، من غير تقدُّم ولا تأخر، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدُّلٍ ولا تغيُّر، دبَّر الأمور لا بترتيب أفكار وتربُّص زمان، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن، وأنَّه سميعٌ بصيرٌ يسمع ويرى، لا يعزب عن سمعه مسموعٌ وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مرئيٌّ وإن دقّ، ولا يحجب سمعه بُعد، ولا يدفع رؤيته ظلام، يرى من غير حدقة وأجفان، ويسمع من غير أصمخةٍ وآذان، كما يعلمُ من غير قلب، ويبطُش بغيرِ جارحة، ويخلق بغير آلة؛ إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، وأنَّه متكلِّم آمرٌ ناهٍ واعد متوعِّد بكلامٍ أزليٍّ قديمٍ قائمٍ بذاته، لا يشبه كلام الخلق فليس بصوتٍ يحدث من انسلال هواء أو اصطكاكِ

أجرامٍ، ولا بحرفٍ يتقَّطع بإطباقِ شفةٍ أو تحريكِ لسانٍ، وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله، وأن القرآن مقروءٌ بالألسنة، مكتوبٌ في المصاحف، محفوظٌ في القلوب، وأنَّه مع ذلك قديمٌ قائم بذات الله لا يقبل الانفصال والفراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق، وأنَّ موسى عليه السلام سمع كلام الله بغير صوتٍ ولا حرفٍ، كما يرى الأبرار ذات الله من غير جوهرٍ ولا عرضٍ، وإذا كانت له هذه الصفات كان حيًّا عالمًا قادرًا مريدًا سميعًا بصيرًا متكلمًا بالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، لا بمجرد الذات، وأنَّه لا موجود سواه إلَّا هو، حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها، وأنَّه حكيمٌ في أفعاله عادلٌ في أقضيته ولا يقاس عدلُه بعدل العباد إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ولا يتصور الظلم من الله فإنَّه لا يصادف لغيره ملكًا حتى يكون تصرفه فيه ظلمًا فكلُّ ما سواه من إنسٍ وجنٍّ وشيطان وملك وسماءٍ وأرضٍ وحيوانٍ ونباتٍ وجوهرٍ وعَرَض ومدرَك ومحسوس حادث [٩/أ] اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعًا وأنشأه إنشاءً، بعد أن لم يكن شيئًا؛ إذ كان في

الأزل موجودًا وحده ولم يكن معه غيره، فأحدث الخلق بعده إظهارًا لقدرته وتحقيقًا لما سبق من إرادته ولِما حقَّ في الأزل من كلمته لا لافتقاره إليه وحاجته، وأنَّه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب، ومتطول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان؛ إذ كان قادرًا على أن يصب على عباده أنواع العذاب، ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب، ولو فعل ذلك لكان منه عدلًا ولم يكن قبحًا ولا ظلمًا، وأنَّه يثيب عباده على الطاعات بحكم الكرم والوعد، لا بحكم الاستحقاق واللزوم؛ إذ لا يجب عليه فعل ولا يُتصور منه ظلمٌ ولا يجب لأحدٍ عليه حق، وأنَّ حقه في الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على لسان أنبيائه لا بمجرد العقل، انتهى.

٤. (فريدة): المتشابهات

لزم هنا أن نتكلم على ما جاء في حقه تعالى في الآيات المتشابهات؛ ليعمل العبد بحقيقة التنزيه في التوحيد، وليأمن من المزالق التي تجرُّ إلى وهدة البدعة - والعياذ بالله تعالى -، قال سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه في كتابه البرهان المؤيد ما نصه: صونوا عقائدكم من التمسك بظاهر ما تشابه من الكتاب والسنة؛ لأنَّ ذلك من أصول الكفر، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾ [آل عمران: ٧]، والواجب عليكم وعلى كلِّ مكلف في المتشابه الإيمان بأنَّه من عند الله أنزله على عبده سيدنا رسول الله ﷺ، وما كلفنا سبحانه وتعالى تفصيل علم تأويله، قال جلَّت عظمته: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]، فسبيل المتقين من السلف تنزيه الله تعالى عمَّا يدل عليه ظاهره، وتفويض معناه المراد منه إلى الحق تعالى وتقدس، وبهذا [٩/ب] سلامة الدين، سُئِل بعض العارفين عن الخالق

تقدست أسماؤه فقال للسائل: إن سألت عن ذاته: فليس كمثله شيء، وإن سألت عن صفاته: فهو أحدٌ صمدٌ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، وإن سألت عن اسمه: فـ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢﴾ [الحشر: ٢٢]، وإن سألت عن فعله فـ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٩]، وقد جمع إمامنا الشافعي رضي الله عنه جميع ما قيل في التوحيد بقوله: من انتهض لمعرفة مدبره فانتهى إلى موجود ينتهي إليه فكره فهو مشبه، وإن اطمأن إلى العدم الصرف فهو معطل، وإن اطمأن لموجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحد، أي سادة: نزِّهوا الله عن سمات المحدَثين وصفات المخلوقين، وطهِّروا عقائدكم من تفسير معنى الاستواء في حقه تعالى بالاستقرار كاستواء الأجسام على الأجسام المستلزم للحلول - تعالى الله عن ذلك -، وإياكم والقول بالفوقيَّة والسفليَّة والمكان واليد والعين بالجارحة والنزول بالإتيان والانتقال؛ فإن كل ما جاء في الكتاب والسنة ممَّا يدل ظاهره على ما ذكر، فقد جاء في الكتاب والسنة مثله

ممَّا يؤيد المقصود فما بقي إلا ما قاله صلحاء السلف وهو الإيمان بظاهر كل ذلك، وردعلم المراد إلى الله ورسوله مع تنزيه البارئ تعالى عن الكَيف وسمات الحدوث، وعلى ذلك درج الأئمة، وكل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره وقراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره إلَّا الله تعالى ورسوله، ولكم حمل المتشابه على ما يوافق أصل المحكم؛ لأنَّه أصل الكتاب، والمتشابه لا يعارض المحكم، سأل رجل الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلَّا مبتدعًا، وأمر به أن يخرج، وقال إمامنا الشافعي رضي الله عنه لما سئل عن ذلك: [١٠/أ] آمنت بلا تشبيه، وصدقت بلا تمثيل، واتهمت نفسي في الإدراك، وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك. وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: من قال لا أعرف الله أفي السماء هو أم في الأرض؟ فقد كفر؛ لأنَّ هذا القول يوهم أنَّ للحق مكانًا، ومن توهم أنَّ للحق مكانًا فهو مشبه، وسئل الإمام أحمد رضي الله عنه عن الاستواء فقال: استوى كما أخبر لا كما

يخطر للبشر، وقال الإمام ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام[(١)]: من زعم أنَّ الله في شيءٍ أو من شيءٍ أو على شيءٍ فقد أشرك؛ إذ لو كان على شيءٍ لكان محمولًا، ولو كان في شيءٍ لكان محصورًا، ولو كان من شيءٍ لكان محدثًا.

أي سادة: اطلبوا الله بقلوبكم هو أقرب إليكم من حبل الوريد ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطّلاق: ١٢]، الدين النصيحة إذا قلتم لا إله إلا الله فقولوها بالإخلاص الخالص من الغيريَّة ومن خطورات التشبيه والكيفيَّة والتحتيَّة والفوقيَّة والبعديَّة والقربيَّة، وخذوا نتائج الأعمال بخالص النية، انتهى.

قال العلامة ابن اللّبان[(٢)]: ومن المتشابه صفة الفوقيَّة وقد جاء بها الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: ٥٠] ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، وآيات كثيرة وأحاديث كثيرة وهو معدود من المتشابه، وذلك أنَّ كلمة فوق

---

(١) الإمام جعفر الصادق: هو الإمام جفعر الصادق بن الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين السبط الشهيد ابن سيدنا علي بن أبي طالب (٨٠-١٤٨هـ).

(٢) مرت ترجمته (ص٣١).

موضوعة لإفادة جهة العلوّ والله تعالى منزه عن الجهات وإنما المراد منها حيث أطلقت في حق ربنا سبحانه إفادة العلو الحقيقي، وممَّا يدل على عدم اختصاصه بجهة فوق قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزّخرُف: ٨٤]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١١٥]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ [قٓ: ١٦]، وقوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجَادلة: ٧] وآيات كثيرة يطول ذكرها، ولو كان في جهة العلو تعارضت هذه الآيات واختلفت وهو منافٍ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النّسَاء: ٨٢]، [١٠/ب] وفي مسلم عن أبي هريرة أنَّه ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد»(١)، فنفى تقييده بجهة فوق، وهو ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النّجم: ٣-٤]، والذي يجمع بين الآيات والأحاديث أن يعلم أن العلو له اعتباران، اعتبار إضافي واعتبار حقيقي، فعلو المخلوقات

(١) رواه مسلم في صحيحه، وأبو داود والنسائي في سننهما، وكلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بعضها على بعض إنَّما هو علوٌّ إضافي لازمًا من مخلوق له جهة، فما من مخلوقٍ له جهة علّو إلَّا وهو مستعلٍ بالنسبة إلى مخلوق آخر هو فوقه إلى ما شاء الله، وهذا العلوُّ الإضافي قسمان: قسم حسيٌّ: وهو المفهوم بالنسبة إلى الجهات المكانيَّة المخصوص بالجواهر المفتقرة للحيِّز، وقسم معنويٌّ: وهو المفهوم بالنسبة إلى درجات الكمال العرفانيِّ لأرباب القلوب؛ إذ الكمال الوهمي لأرباب النفوس، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزّخرُف: ٣٢]، وقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسـراء: ٢١]، هذا كله في العلوِّ الإضافيِّ، وأمَّا العلو الحقيقيِّ فإنَّما هو لله سبحانه ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، وعلوه هذا محقق قبل الجهات والأماكن مفهوم بدون اعتبار النسب والإضافات، عامٌّ في جميع تجلياته على مخلوقاته بأسمائه وصفاته، وإنما يعرفه ويشهده أرباب البصائر والقلوب، ولتجلي نور توحيده بعلوِّ فوقيته سُبحة، وله حجاب فسبحته صفة القهر، وحجابه خلوص العبوديَّة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٨].

تنبيه: إذا أردت أن تحقق أن فوقيته ليست فوقيَّة مكانيَّة، وإنَّما هي الفوقيَّة الحقيقيَّة بقهر الربوبيَّة للعبوديَّة، ففكر في قوله: كان الله ولا شيء معه، ولم يتجدد له بخلقه السماوات علو، ولا بخلقه الأرض نزول، ولا بخلقه العرش استواء، وإنما عن تجلي أسمائه وصفاته نشأت أعداد مخلوقاته غير مماسَّة له، ولا منتسبة إليه بفوقٍ ولا تحت ولا شيء من الجهات، قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١) ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢)﴾ [الأعلى: ١-٢]، [١١/أ] فوصفه بالأعلى حال اتصافه بالخلق فدل على أن علوه محقق قبل الخلق، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، مع قول فرعون عن بني إسرائيل: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، فهل يفهم أحد أن فرعون ادعى أنَّه فوق بني إسرائيل بالمكان أو الجهة؟ وإنَّما لمَّا ادَّعى الربوبيَّة بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعات: ٢٤]، كان من لوازم دعواه ادَّعاء الفوقيَّة اللَّائقة وهي الفوقيَّة الحقيقيَّة بالقهر؛ فلذلك قال: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، لا جرم كذبه الله في الأمرين فكذبه في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعات: ٢٤]، بقوله لموسى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨]، وكذبه

بقهره في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٨-٧٩].

٢ - **تنبيه**: قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر: ١٥]، يرجع إلى العلو والفوقيَّة الحقيقية، وليس المراد أن العلوَّ الحقيقي له درجات وتفاوت، وإنَّما المراد أنَّ للعباد في ترقيهم إلى معرفته وخلوص التحقق به درجات: الأولى: درجة الإيمان، الثانية: درجة التقوى، الثالثة: درجة الإتباع، الرابعة: درجة العلم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

٣- تنبيه: لمَّا ادَّعى فرعون الربوبيَّة واعتقد الجهة لله تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]؛ فردَّ الله عليه وسخَّف رأيه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧]، أي عدل عن سبيل القرب والدنو من إله

موسى فإنه تنزَّه عن علوِّ المكان وإنما ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، أين هو من قول موسى ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]؟ مع أنَّه لم يبن له صرحًا ولا احتاج في الدنو والقرب إلى صعود [١١/ب] السماء وكذلك إبراهيم ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٤] ووهب له ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]؛ فكان مجيئه إليه ووصوله وعلوّه بسلامة القلب وصدق اللسان لا بالتسوّر والصعود إلى المكان، وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى نخامة في القبلة فقال: «**ما بال أحدكم يقوم فيستقبل ربه فيتنخع أمامه؟! أيحب أحدكم أن يستقبل فيتنخع في وجهه؟**»[1] فدل على أنه ليس مخصوصًا بجهة فوق، وإلا لمَا كان قبلة المصلي وأمامه، وبالجملة فالأحاديث الدَّالة على عموم إحاطة ربنا بجميع الجهات وعدم اختصاصه كثيرة، والقصد قد حصل بما ذكرناه، انتهى.

قال الإمام الغزالي[2] في الرسالة القدسيَّة: الله تعالى منزه

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، وابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه،

(٢) الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ - ١١١١م)، محمد بن محمد بن محمد

=

الذات عن الاختصاص بالجهات؛ فإن الجهة إمَّا فوق وإمَّا أسفل وإمَّا يمين وإمَّا شمال أو قدام أو خلف، وهذه الجهات هي التي خلقها وإحداثها بواسطة خلق الإنسان، إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلًا ، والآخر يقابله و يسمى رأسًا ، فحدث اسم الفوق لِما يلي جهة الرأس، واسم السُّفل لِما يلي جهة الأرض، حتى أنَّ النملة التي تدب متنكِّسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق في حقها تحتًا ، وان كان في حقنا فوقًا وخلق للإنسان اليدين، إحداهما أقوى من الأخرى في الغالب، فحدث اسم اليمين للأقوى، والشمال لِما يقابله، وسمَّى الجهة التي تلي اليمنى والأخرى شمالًا ، وخلق له جانبين يبصر من أحدهما ويتحرك إليه، فحدث اسم القدَّام للجهة التي تتقدم إليها بالحركة، واسم الخلف بما يقابله؛

= الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام: فيلسوف، متصوف، له نحو مئتي مصنف. مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس، بخراسان) رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته. نسبته إلى صناعة الغزل عند من يقوله: بتشديد الزاي أو إلى غزالة من قرى طوس، وأهم مصنفاته الكثيرة إحياء علوم الدين، وله مؤلفات بالفارسية.

فالجهات حادثة بحدوث الإنسان، ولو لم يخلق الإنسان بهذه الخلقة بل خلق مستديرًا كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجود البتة، فكيف كان مختصًا في الأزل بجهة والجهة حادثة؟ أو كيف صار بجهة بعد أن لم يكن بأن خلق العالم تحته؟ وتعالى أن يكون له تحت! وتعالى أن يكون له رجلًا، والتحت عبارة عمَّا يلي [١٢/ب] جهة الرجل، فكل ذلك ممَّا يستحيل في العقل؛ لأنَّ المعقول من كونه بجهة أنَّه مختص بحيز اختصاص الجوهر، أو مختص بالجوهر اختصاص العرض، وقد ثبت استحالة كونه مختصًا بجهة وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطًا في الاسم مع المساعدة على المعنى؛ ولأنَّه لو كان فوق العالم كان محاذيًا الجسم، فإمَّا أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر وكل ذلك تقدير يحوج إلى مقدر، ويتعالى عنه الخالق المدبر، فأمَّا رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء فلأنَّها قِبلة للدعاء، وفيه أيضًا إشارة إلى ما هو وصفٌ للمدعوِّ من الجلالة والكبرياء تبينها بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء؛ فإنَّه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء، انتهى كلامه.

قال الإمام الشعراني[(١)]: «وقد ابتلي جماعة بالقول بالجهة، وممن نقل عنه القول بالجهة الشيخ عبد القادر الجيلاني[(٢)] قدس سره، قال الشعراني في كتابه (اليواقيت والجواهر) ما نصه: «رأيت في كتاب البهجة المنسوبة لسيدي الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه ما نصه: «اعلموا أن عباداتكم لا تدخل الأرض وإنما تصعد إلى السماء، قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فَاطِر: ١٠] فربنا سبحانه وتعالى في جهة العلو، الله على العرش استوى وعلى الملك احتوى، وعلمه محيط بالأشياء، بدليل سبع آيات في القرآن العظيم في هذا المعنى لا يمكنني ذكرها لأجل جهل الجاهل ورعونته» انتهى، فلا أدري أذلك الكلام دس على الشيخ في كتابه؟ أم وقع ذلك

---

(١) الإمام الشعراني: (٨٩٨-٩٧٣هـ) إمام زمانه في التصوف والأخلاق، مولده ووفاته بمصر، أخذ عن الشيخ علي الخواص وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، شافعي المذهب أشعري العقيدة.

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني: (٤٧٠-٥٦١هـ) أحد الأقطاب الأربعة المشهورين في الأمة، حنبلي المذهب، عبد القادر أبو محمد بن موسى، إليه تنسب الطريقة القادرية حسني النسب، وفاته ببغداد ومقامه مشهور فيها، يلقب بـ«باز الله الأشهب».

في بدايته ورجع عنه لما دخل في الطريق؟ فإن من المعلوم عند كل عارف بالله تعالى أنه تعالى لا يتحيز، والشيخ قد شاعت ولايته في أقطار الأرض، فيبعد من مثله القول بالجهة قطعاً.

وقد ذكر الشيخ محي الدين ابن العربي(١) رحمه الله أنَّه لا يلزم من قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر: ١٠] أن يكون تعالى في جهة [١٢/ب] الفوق دون غيرها بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]، ظرفيَّة تليق بجلاله، وأجمع المحققون أن شهود الحق تعالى في حال السجود صعود، وإن كان السجود في أسفل سافلين، وأمَّا قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: ٥٠]، أي يخافون ربهم أن ينزل عليهم عذابًا من فوق رؤوسهم، هذا هو الاعتقاد الحق، وقال أيضًا: فإن قلت: فمتى يخرج العبد عن القول بالجهة؟

---

(١) ابن العربي: (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ = ١١٦٥ - ١٢٤٠م)، محمد بن علي بن محمد ابن العربي، أبو بكر الطائي الأندلسي، المعروف بمحيي الدين ابن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر: فيلسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسية بالأندلس وانتقل إلى إشبيلية، وقام برحلة، فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز، واستقر في دمشق، فتوفي فيها، وله نحو أربعمائة كتاب ورسالة، منها: الفتوحات المكية.

فالجواب كما قاله سيدي علي بن وفا[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه لا يخرج عبد عن القول بالجهة إلا إن نفذ كشفه من أقطار السماوات والأرض وأعطاه الله تعالى شيئًا من علمه تعالى، قال: وأمَّا من تقيد كشفه بالسماوات والأرض أو البرزخ والجنة والنار فلا يرى ربه إلا في جهة، انتهى.

أقول وقد برأ الشيخ عبد القادر من القول بالجهة جماعة، وقالوا إنه رجع عما كان يعتقده، ويؤيد ذلك قول الإمام ابن حجر الهيتمي المكي[2] حين سئل عن ما نقل عن الشيخ قدس سره من القول بالجهة في كتابه (خاتمة الفتاوى)، وهذا الجواب بلفظه: «نقل عن جماعة من الصوفية كلمات تدل على انحلال عقائدهم، لا سيما الشيخ عبد القادر الجيلاني نفع الله به ورحمه، فإنه نقل عنه القول بالجهة، وهذا قدح عظيم وخرق

---

(١) علي بن وفا: (٧٦١-٨٠٧هـ) هو علي بن محمد بن محمد بن وفا أبو الحسن السكندري الأصل، الصوفي الشاذلي المالكي، اشتهر بابن وفا، ولد في القاهرة وقد مات أبوه وهو صغير، فنشأ في كفالة الشيخ محمد الزيلعي هو وأخوه؛ فأدبهما وفقههما، وكان من رجال الطريقة الشاذلية، وله مؤلفات كثيرة.

(٢) ابن حجر الهيتمي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي الشافعي، شيخ الإسلام في عصره أحد أهم المفتين على المذهب الشافعي ولد بمصر وتوفي بمكة (٩٠٩-٩٧٣هـ).

جسيم، وحاشا هذا الولي أن يقول ذلك، وأن يرتكب في شيء من المهالك، ووعر تلك المسالك، فبينوا ما في ذلك؟ فأجاب بلَّ الله ثراه بقوله: «حاشا الله ومعاذ الله، أن يظن بأحد من أئمة الصوفية المذكورين، وفي رسالة القشيري[1] وعوارف المعاني وغيرهما من كتب الأئمة الجامعين بين علمي الظاهر والباطن شيئاً مما يخالف عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد ذكر القشيري وغيره من كلماتهم في العقائد ما يبين ذلك ويوضحه فانظره في الرسالة وغيرها، ومن نسب إلى أحد منهم شيئاً مما يخالف ذلك كالقول بقدم الحروف فقد افترى، فقد صرح سهل بن عبد الله[2] وأبو بكر الشبلي[3] وأبو العباس ابن عطاء[4] بحدوثها وابن

(١) الإمام القشيري: عبد الكريم بن هوازن أبو القاسم بن القشيري، إمام الصوفية وصاحب الرسالة القشيرية من كبار علماء الفقه والتفسير والحديث والأصول (٣٧٦-٤٦٥هـ).

(٢) سهل بن عبد الله: أبو محمد سهل بن عبد الله التُّسْتَري (٢٠٠-٢٨٣هـ) من أئمة الصوفية، له كلام جليل في السلوك والمواعظ.

(٣) أبو بكر الشبلي: (٢٤٧-٣٣٤هـ) شيخ الطائفة، دُلَف بن جَحدَر، مولده بسامراء، صحب الجنيد، كان فقيهاً مالكياً، كتب الحديث عن طائفة.

(٤) ابن عطاء: أبو العباس أحمد بن محمد البغدادي (ت٣٠٩هـ) الزاهد العابد،

=

عطاء هذا هو أحد الشيوخ الخمسة الذين أجمع على الاقتداء بهم، لجمعهم بين علمي الظاهر والباطن وهم: أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي[1] «وإنكار الإمام أحمد عليه بالغوا في رده، وأنه لعدم علمه بحقيقة حاله»، وأبو القاسم الجنيد[2]، وأبو محمد رويم[3]، وأبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي[4]، وابن عطاء المذكور، وتخصيص هؤلاء بذلك إنما هو لكونهم

= من أقران الجنيد، ومن كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم، له كلمات نافعة وحكم نفيسة.

(١) الحارث المحاسبي: الحارث بن أسد المحاسبي البصري أبو عبد الله، (١٧٠-٢٤٣هـ) توفي ببغداد كان عالماً بالأصول والمعاملات ومن أكابر الصوفية في عصره.

(٢) الجنيد البغدادي: أبو القاسم الجنيد بن محمد البغدادي الخزاز (٢٢٠-٢٩٧هـ)، سيد هذه الطائفة وإمامهم، مولده ووفاته ببغداد، صحب خاله السري السقطي وأتقن العلم وتأله وتعبد ونطق بالحكمة.

(٣) رويم: أبو محمد رُوَيْم بن أحمد (ت٣٠٣هـ) صوفي بغدادي شهير، كان مقرئاً فقيهاً، عالماً بالقرآن الكريم عارفاً بالمعاني، عاكفاً على الحقائق، قلد بفصل الخطاب ولم تؤثر فيه العلل والأسباب.

(٤) أبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي: (ت٢٩١هـ) الإمام الرباني، شيخ الصوفية في عصره صحب أبا سعيد الخزاز وله تصانيف في الطريق.

كانوا مجتمعين اجتماعاً مخصوصاً في عصر واحد، لا لنفي الاقتداء عن غيرهم، إذ الجامعون بين العلمين المذكورين من القوم كثيرون، على أن تخصيص الاقتداء بالجامعين بين العلمين المذكورين إنما هو لبيان الأكمل، إذ لا خلاف بينهم أن جميع السالكين العارفين بالله تعالى يجوز الاقتداء بهم، سواء حصل السلوك قبل الجذبة أو بعدها، وسواء علموا جميع الشريعة المفروضة والمندوبة أم لم يعرفوا، سوى فرض العين الذي لا بد لكل مكلف منه، أو لبيان من يقتدى به في العلمين معاً، وقد قال أبو عثمان المقري[١]: كنت أعتقد شيئاً من حديث الجهة فلما قدمت بغداد زال عني ذلك، فكتبت إلى أصحابنا بمكة أني أسلمت جديداً، وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني: قدمت من بغداد إلى نيسابور فدرست في جامعها فشرحت القول في الروح وأنها مخلوقة، فأصغى الشيخ أبو القاسم النصرابادي[٢]

(١) أبو عثمان المقري: سعيد بن أحمد المقري القرشي التلمساني، من علماء القرن الحادي عشر الهجري مفتي تلمسان، (ت١١٥٥هـ).

(٢) أبو القاسم النصرابادي: إبراهيم بن محمد الخراساني النصرآبادي النيسابوري من أعلام التصوف وأحد علماء العقيدة، وشيخ خراسان ت (٣٦٧هـ) بمكة المكرمة.

إليَّ من بعيد، ثم اجتاز بنا بعد أيام فقال لبعض أصحابه اشهدوا أني أسلمت على يد هذا الرجل وأشار إليَّ.

فانظر إلى تواضع هذا الأستاذ الذي هو أبو القاسم وإنصافه ورجوعه للحق مع أنه كان شيخ وقته، وكذا أبو عثمان السابق، وكل هذا يدل على أنهم مطهرون عن الحظوظ النفسية متصفون بالصفات العلية، ومن كلام أبي القاسم المذكور: «الجنة باقية بإبقائه، وذكره لك ورحمته ومحبته لك باقية ببقائه، فشتان بين ما هو باقٍ ببقائه، وما هو باقٍ بإبقائه» فتأمل هذا التحقيق عن هذا الإمام الموافق لما عليه أهل الحق، أن صفات القديم سبحانه باقية بإبقائه، وأن ذاته باقية ببقائه، ولما ذكر القشيري عقائدهم المأخوذة من مجموع كلامهم قال: دلت هذه المقامات على أن عقائد مشايخ الصوفية توافق أقاويل أهل الحق في مسائل الأصول، وقال أيضاً: «اعلموا - رحمكم الله - أن شيوخ هذه الطريقة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، وصانوا عقائدهم من البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل».

وقال سلطان العلماء العز ابن عبد السلام[1] رحمه الله بعد أن ذكر عقائد أهل السنة والجماعة: «هذا إجمال من اعتقاد الأشعري واعتقاد السلف، وأهل الطريقة والحقيقة، نسبة إلى التفصيل الواضح كنسبة القطرة إلى البحر الطافح»، ومراده بأهل الطريقة والحقيقة (الصوفية)، وما أحسن قول بعضهم: المعتزلة نزهوا الله من حيث العقل فأخطؤوا، والصوفية نزهوه من حيث العلم فأصابوا، قال اليافعي[2]: «وقد اشتهر عن الشيخ عبد القادر أنه كان يعتقد الجهة، وقد استغرب ذلك منه وعُدَّ شاذاً في ذلك عن أئمة المشرق، وكما عُدَّ الإمام ابن عبد البر[3] شاذاً في ذلك عن أئمة المغرب، لكن قد أخبر الشيخ الكبير العارف بالله الشهير، نجم الدين الأصفهاني أن الشيخ عبد القادر رجع آخراً عما كان يعتقده أولاً، ذكر ذلك لما بلغه أن الإمام ابن

---

(١) العز بن عبد السلام: عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ملقب بسلطان العلماء وشيخ الإسلام (٦٦٠-٥٧٧هـ).

(٢) اليافعي: عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي الشافعي توفي بمكة (٧٦٨هـ) له كتاب (مرآة الجنان وعبرة اليقظان).

(٣) ابن عبد البر: (٣٦٨-٤٦٣هـ) أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري، إمام وفقيه مالكي ومحدث ومؤرخ.

دقيق العيد تعجب من اعتقاد الشيخ عبد القادر، ذلك مع ما حواه من العلوم والمعارف، ومثل الشيخ نجم الدين الأصفهاني، إذا أخبر عن القوم بقول فعلى الخبير يسقط المخبر، إذ هو من أهل الاطلاع ظاهراً وباطناً لكونه من أهل النور والكشف المشهور وكون العراق له وطناً، وصحب المشايخ هنالك والعلماء وعقد النبي ﷺ للوائه أحد عشر علماً، أخبرني بالرجوع عن الاعتقاد المذكور وعقد الأعلام المذكورة غير واحد من أصحاب الشيخ نجم الدين المذكور عنه فمن لا أشك والله في صدقهم» انتهى كلام اليافعي.

ثم حكى من كلام الشيخ عبد القادر ما اشتمل على بدائع من التوحيد والتنزيه، وعجائب من المعارف، وقواطع بنفي التجسيم والمكان والتشبيه، مفصحاً بكون الحق تعالى لم يستقر في مكان، ولم يتغير عما عليه، كان جامعاً بين فصاحة العبارة، وبلاغة الاستعارة، وحلاوة نظم الدر في سلك معارف الأنوار، وطلاوة تناسب الفواصل في سبل محاسبة الأسرار» انتهى بنصه، وفي هذا تنزيه للحق سبحانه وتعالى عن الجهة التي قال بها بعض الحنابلة، ومن هذا التنزيه يظهر لك تنزيهه سبحانه وتعالى

عن المماثلة والمشابهة والحلول والاتحاد، وغير ذلك من سمات الحدوث تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً».

وقد حقق ابن اللبان البحث في قصة الإسراء فقال: قصة الإسراء وان كانت مشتملة على الترقي بالنبي ﷺ إلى السماوات فليست منافية لِما ذكرناه ولا مستلزمةً لإثبات الجهة، ويدل عليه أمور منها:

- افتتاح السورة بسبحان المقتضية للتنزيه تنبيهًا على تعاليه عن التحيز بالجهات وعلى عدم اختصاصه بجهة.

- الثاني: قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، فأتى بباء الإلصاق المفيدة للمصاحبة في تعدية الفعل تنبيهًا على مصاحبته له في حالة إسرائه، وأنه ليس نائيًا ولا بعيدًا عنه، فيحتاج في قربه إلى قطع مسافة مكانيَّة، وتحقيقًا لقوله ﷺ: «**اللّهم أنت الصاحب في السفر**[1]».

- الثالث: قوله: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] تنبيهًا على أنَّه على حسب التحقق بخضوع العبودية يكون الترقي إلى حضرة الربوبية.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه وأبو داود والنسائي في سننهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والترمذي في سننه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

- الرابع: قوله: ﴿لَيْلًا﴾ [الإسرَاء: ١] وإن كان لفظ الإسراء مفيدًا لذلك كل ما تنبيهًا على أنَّ كل ما تضمنه الإسراء كان خارجًا عن العادة في مثله، فإنَّه جعل العلة فيه أن يريه من آياته، والإراءة العادية سلطانها النهار؛ فقال: ﴿لَيْلًا﴾ [يُونس: ٢٤] ليعلم أنَّ الرؤية المقصودة [١٤/ب] ليست عادية بل هي رؤية بنور ربانيٍّ سلطانه الليل دون النهار.

- الخامس: قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسرَاء: ١]، نبَّه به على أنَّ الإسراء لو كان لصيرورة رؤية ربه لكونه مخصوصًا بجهة العلوِّ لم يكن حاجة بالذهاب إلى المسجد الأقصى، ولأمكن الترقيّ من مكةَ إلى السماء، فدل على أنَّ الإسراء والترقي من مكان إلى مكان لِحكمة وراء ما زعمه مُثبت الجهة.

٤- **تنبيه**: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النّجم: ٨-٩] إياك أن تفهم أنَّ ذلك يُشعر بتحديد في القرب أو تخصيصٍ في الجهة، وإنَّما هو دنوٌّ تجلٍ وكشف؛ لأنَّه ذكره في قصة الإسراء بالروح، ألَا ترى إلى قوله بعده: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ [النّجم: ١١]؟ ثم ذكر بعده الإسراء الحسيَّ

فقال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ [النّجْم: ١٣]، إلى قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النّجْم: ١٨]، فإذا علمت أنَّه دنوٌّ تجلٍّ روحانيٍّ وكشفٍ عرفاني فهمت سر قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ [النّجْم: ٧] من قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فُصّلَت: ٥٣] فكان أفقه في الرؤية وبيان الحق هو الأفق الأعلى، ثم دنا عن الأفق الأعلى في نعيم الرؤية وفي بيان الحق ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النّجْم: ٩] أي قدر قوسين، والقوس في اللغة يستعمل للذراع أو ما يقدر ويقاس به، وهو المراد هنا، وهو من قوله في الصحيح: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني**»، الحديث وفيه: «**وإن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعًا**»(١) وليس المراد فيهما ذراع حسي محدود وإنَّما المراد تمثيل التقريب لدنوِّ الذاكر من المذكور في مجالس النجوى، والذكر والتجلِّي سرُّ المعية للقلب، وأدنى الرتب في ذلك تحقق القلب بسر سبحان الله، وسر الحمد لله، وكذلك كان ليلة الإسراء وإن

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وابن ماجه والترمذي والنسائي في سننهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أردت التحقق بذلك فخذه من افتتاح سورة الإسراء: ﴿سُبْحَـٰنَ﴾ [الحَشر: ٢٣]، واختتامها بقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الإسرَاء: ١١١].

٥- **إيضاح**: إذا أردت أن تفهم سرَّ التدلي في قوله: ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ [النّجم: ٨]، فتأمَّل ما رواه أبو عيسى الترمذي في حديث العنان [١٥/أ] وفيه ذكر الأرضين السبع، وأن بين كل أرض وأرض كما بين السماء والأرض، ثم قال: «**والذي نفسي بيده لو دلى أحدكم بحبل لوقع على الله**[١]» فنبَّه على عدم تحيُّزه في السماء، وأنَّه ليس مختصًا بجهة في سماء وأرض، كما نبَّه على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ [النّجم: ٨]، فإنَّ الإسراء كان للعلو، فربما توهم المحجوبون أنَّ الدنوَّ في قوله: ﴿دَنَا﴾ [النّجم: ٨] زيادة في العلو، فنبه بقوله: ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ [النّجم: ٨] على أنَّ قربه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النّجم: ٩] كان ثمرة التدليِّ المشعِر بالنزول، وأنَّه تعالى لا يختص قربه بجهة العلوِّ، بل التدلي إليه بالخضوع أقرب تحقيقًا لقوله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العَلق: ١٩]، وفي الصحيح: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**[٢]».

---

(١) رواه الترمذي وأحمد والطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، وأبو داود والنسائي في سننهما من حديث

=

٦- **تبصرة**: وإذا أردت زيادة التبصُّر بأنَّ الإسراء وعروج الملائكة ورفع عيسى وإدريس عليهم السلام إلى السماء لا يدل على أنَّ الله مخصوصٌ بجهة السماء، فاعتبر فرض الحج على العباد إلى البيت الحرام؛ فأمر الله تعالى الناس بالتوجه إليه من جميع الجهات، وجعل سكانه جيران الله، وحجاجه وفد الله وضيفانه، والحجر الأسود يمينه، مع أنَّ نسبة البيت وغيره إلى الله سبحانه باعتبار المسافة نسبةٌ واحدة، فعلم أنَّ القصد بالسير إلى البيت ليس لأنَّ السير يقتضي القرب والوصول إليه بالمكان، وإنَّما لله سبحانه تعبدات وأسرار في ضمن مشروعات يقتضيها من عباده بحكم ظاهرة وخفية، ألَا تراه كيف ناجى موسى بالوادي المقدَّس وأسمعه كلامه من الشجرة ووصفه بالقرب إلى مجلس حضرته ونجواه مع الاتفاق على أنَّه تعالى لا يختصُّ بجهة الوادي المقدس؟ ولا يحلُّ كلامه وهو صفته بالشجرة؟ وأنَّ موسى قرب إليه مع كون موسى بالأرض وسمع نداء ربه من جانب الطور ولم يكن ربه بجانب الطور وإنَّما التجليات مظاهر

= أبي هريرة رضي الله عنه.

وحجب روحانيَّة وجسمانيَّة ولا يشهدها إلَّا من فتق الله رتق قلبه، وأفلق أصباح ليله ونور مصباح مشكاته [١٥/ب] بزيت شجرة توحيده ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

تشكيك: قد يرد على ذلك نحو قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦]، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، وأمثال ذلك، وقوله للجارية ﷺ: «**أين الله؟**» فقالت: في السماء، قال: «**اعتقها فإنَّها مؤمنة**[١]»، والجواب: أنه قد قررناه أنَّ تجلياته تعالى بأسمائه وصفاته محيطة بدوائر السماوات والأرض، وأنَّ لها في تفرقها وسائط سفليَّة منسوبة للعبد، ووسائط علويَّة منسوبة له، وأطلق على نفسه تعالى أنَّه تعالى في السماء باعتبار الوسائط أو مظاهر تجليَّاته العلويَّة، وأنَّه في الأرض باعتبار المظاهر والوسائط السفليَّة وهو الله ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، وأبو داود والنسائي في سننهما من حديث معاوية السلمي.

وَٰحِدٌۖ﴾ [النّحل: ٥١]، فإذا كان المقصود بالسياق تحذير أهل الأرض وتفخيم الأمر جاء التعبير بمن في السماء فإنَّ مظاهر السماويَّة هي القائمة بالتصرفات الغيبيَّة المنسوبة إليه، وأمَّا تنزل التدبير وعروجه فهو عروجٌ روحانيٌّ وسرٌّ رحمانيٌّ وكشفٌ عرفانيٌّ، وأمَّا تقرير الجارية على أنَّ الله في السماء ووصفها بأنَّها مؤمنةٌ فالحق أنَّ النبي لم يعتمد في إيمانها وتقريرها ظاهر لفظها؛ فإنَّ لفظها ليس مفيدًا لتوحيد الله، لا على مذهب القائلين بالجهة، ولا على غيرهم، أمَّا عند من يثبت الجهة فواضح، وأمَّا عند مثبت الجهة فلأنَّهم موفقون على أنَّه قد عبدت الشمس والملائكة والكواكب، وهي في السماء، وعبد عيسى وهو حين الإخبار في السماء وليس في لفظها ما يخرج هؤلاء عن الآلهة، ولا ما يقتضي وصفها بالإيمان، وأقرب احتمال في ذلك أنَّ الجارية أشرق لبصيرتها نور التوحيد في الآفاق السماوية تحقيقًا لقوله: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فُصّلَت: ٥٣]، فلمَّا قال لها: «**أين الله؟**» قالت: في السماء؛ أي ظهور نور توحيده [١٦/أ] في السماء فقال: «**اعتقها؛ فإنَّها مؤمنةٌ**».

وبقي الكلام على الاستواء: فمن الأصول الدينيَّة التي ألزم الشرع بالعلم والعمل بها، العلم بالله تعالى أنَّه مستوٍ على عرشه بالمعنى الذي أراده تعالى بالاستواء، وهو الذي لا ينافي وصف الكبرياء، ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء، وهو الذي أريد بالاستواء إلى السماء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فُصّلَت: ١١]، وليس ذلك إلَّا بطريق القهر والاستيلاء كما قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق
من غير سيف ودم مِهراق[١]

فاضطُر أهل الحق إلى هذا التأويل ما اضطر أهل الباطل إلى تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، أو حمل بالاتفاق على الإحاطة والعلم، وحمل قوله ﷺ: «**قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن**»[٢] على القدرة والقهر، وحمل قوله عليه السلام: «**الحجر الأسود يمين الله في أرضه**»[٣]

---

(١) قاله الأخطل.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه والنسائي في سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وابن ماجه والترمذي في سننهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) قال في كشف الخفا: (الحجر الأسود يمين الله في أرضه) رواه الطبراني في

=

على التشريف والإكرام؛ لأنَّه لو ترك على ظاهره للزم منه المحال، فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن لزم منه كون المتمكِّن جسمًا مماسًا للعرش، إمَّا مثله أو أكبر منه أو أصغر، وكلُّ ذلك محال، وما يؤدي إلى المحال فهو محال، قرر ذلك الغزالي في رسالته القدسيَّة، وقال في رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات، ومن الآيات المتشابهة آيات الاستواء، والأحاديث الواردة فيه، ومرجعها عند المحققين إلى المحكم من الآيات المحكمات، وأوَّل ما ينبغي تقديمه معنى الاستواء لغة، وأصله افتعل من السواء، والسَّواء في اللغة: العدل والوسط، وله وجوه في الاستعمال ترجع إلى ذلك منها:

استوى: بمعنى أقبل، نقله الهرويُّ[1] عن الفراء[2]، قال:

= معجمه وأبو عبيد القاسم بن سلام عن ابن عباس رفعه. اهـ ورواه غيره بنحوه.

(١) الهروي: شيخ الإسلام أبو اسماعيل، عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي (٣٩٦-٤٨١هـ).

(٢) الفراء: يحيى بن زياد، أبو يحيى، (١٤٤-٢٠٧) هـ إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة والأدب، يقال: لولا الفراء ما كانت اللغة.

العرب يقولون: استوى إلى مخاصمتي أي: أقبل إليَّ، - الثاني: بمعنى قصد، قاله الهرويُّ، - الثالث: بمعنى استولى، - الرابع: بمعنى اعتدل - الخامس: بمعنى استقام، - السادس: بمعنى اعتلى، [١٦/ب] قال الشاعر:

ولـمَّـا عـلـونـا واسـتـويـنـا عـلـيـهـمُ

تـركـنـاهـم صـرعـى لـنـسـر وطـائـر

قاله الحسن بن سهل[١]: إذا علم أصل الوضع وتصاريف الاستعمال فنزل على ذلك الاستواء المنسوب إلى ربِّنا سبحانه وتعالى، وقد فسَّره الهرويُّ بالقصد، وفسره ابن عرفة[٢] بالإقبال، كما نقله عن الفرَّاء، وفسَّره بعضهم بالاستيلاء، ونقل الحسن بن سهل عن ابن عباس أنَّه فسر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البَقَرَة: ٢٩]، قال علا أمره، وهذه التفاسير كلُّها محتملَة وهي على وفق اللُّغة والمعاني اللَّائقة بربنا سبحانه، وأمَّا

---

(١) الحسن بن سهل: والد بوران زوجة المأمون وأخو الفضل المعروف بذي الرئاستين.

(٢) ابن عرفة: (٧١٦-٨٠٣هـ) من أشهر فقهاء المالكية ومن أبرز أعلام المفسرين للقرآن الكريم، له كتب مهمة أشهرها تفسيره.

استوى بمعنى استقر، ومنه قوله: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ [هود: ٤٤]، وقوله: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣]، فلا يليق نسبة مثله إلى استواء ربِّنا على العرش، مع أنَّا نقول قد علمت اشتقاق الاستواء، ولا مدخل لمعنى الاستقرار، وإنَّما الحق أنَّ معنى الاستواء على الدابة جاء على الأصل، ويكون معناه اعتدل أوعلا عليها، والاستقرار من لوازم ذلك بحسب خصوصيَّة المحل، لا أنَّ للاستقرار مدخلًا في معنى اللفظ مطلقًا، وحينئذٍ فلا يصحُّ نسبة مثله إليه تعالى؛ لاستحالته في حقه تعالى وعدم وضع اللفظ له، وقد ثبت ذلك عن الإمام مالك - رحمه الله - أنَّه سئل: كيف استوى؟ فقال: كيف غير معقول والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فقوله: كيف معقول، أي كيف من صفات الحوادث فإثباته في صفات الله تعالى ينافي ما يقتضيه العقل، فيجزم بنفيه عن الله سبحانه وتعالى قوله: والاستواء غير مجهول أي: أنَّه معلوم المعنى عند أهل اللغة، والإيمان به على الوجه اللائق به تعالى واجب لأنَّه من الإيمان بالله وبكتبه، والسؤال عنه بدعة أي حادث؛ لأنَّ الصحابة كانوا عالمين بمعناه، واللائق بحسب اللغة، فلم

يحتاجوا للسؤال عنه، فلما جاء من لم يحط بأوضاع لغتهم ولا له نور كنورهم [١٧/أ] يهديه لنور صفات ربه، شرع يسأل عن ذلك، فكان سؤاله سببًا لاشتباهه على الناس وزيغهم عن المراد، وتعيَّن على العلماء حينئذٍ ألَّا يهملوا البيان، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٧]، ولا بدَّ في إيضاح البيان من زيادة فنقول: قد قررنا أنَّ الاستواء مشتقٌّ من السَّواء، وأصلُه العدل، وحينئذٍ فالاستواء المنسوب إلى ربِّنا تعالى في كتابه بمعنى اعتدل أي: قام بالعدل وأصله من قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عِمرَان: ١٨] إلى قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨] فقيامه بالقسط والعدل هو استواؤه ويرجع معناه إلى أنَّه أعطى بعزَّته كل شيء خلقه موزونًا بحكمَته البالغة في التعرف لخلقه بوحدانيَّته؛ ولذلك قرنه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عِمرَان: ٦]، وقد قرر العارفون والأولياء والصالحون، والعلماء المحققون أنَّ الاستواء بمعنى الاستيلاء والاستعلاء بالقدرة والعظمة، وما تحصَّل من لفظة أين، وهي كلمة يستفهم بها عن الحيِّز المكانيِّ؛ فقد ورد بها الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ

مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، والسنة في قوله ﷺ: «أين الله؟»، قالت: في السماء؛ ومن المعلوم أنَّ التحيز على الله مُحال، فأمَّا أين في الآية فإنَّها أُطلقت لإفادة معيَّة الله للمخاطبين في الأين اللازم لهم لا له سبحانه، فهو مع كل صاحب أين بلا أين، وأمَّا إطلاقه في حديث الجارية فقد تقدم الكلام عليه وفيه كفاية، وهذا الذي عليه أئمة الدين من الماتريدية والأشاعرة ﷺ، وأمَّا توجُّه القلوب إلى العرش، وإيهام بعض المخالفين أنَّ ذلك من الأدلة على الجهة فهو خطأٌ محض، وقد أحسن التعبير عن هذا المقصد سيدنا ومولانا الإمام الرفاعي رضي الله عنه في بعض مجالسه كما نقله الإمام ضياء الدين أحمد الوتري(١) - قدس سره - في كتابه (مناقب الصالحين) بما نصه: أيُّها الإخوان نقطة المعاني لها ذوائب أسرار، كلما أمعن اللبيب [١٧/ب] النظر فيها انكشف له حقائق لم تكن بباله، نعم يسبح الخيال الفاسد إلى استقطاف نتائج غير

(١) الوَتَري (٠٠٠ - ٩٨٠ هـ = ٠٠٠ - ١٥٧٢م) أحمد بن محمد الوتري الشافعي الرفاعي، ضياء الدين أبو محمد، الموصلي الأصل، البغدادي الدار، المصري الوفاة، شيخ فيه فضل وصلاح.

الحقيقة والخيال الصحيح، أعني الذي نهضت به فكرة الحكيم العاقل، لا ينصرف لِما يرده العقل السليم، وهذه المكونات الأرضيَّة لها صانع أحكمها ورفع ذروة معراجها، وأقام لها منبرًا سماويًا جعله سلم الوصلة والقربى بين مكوناته ومصنوعاته العلويَّة؛ لإبراز حكمة الصنع، ولتقر دهشة التعظيم للصانع في قلب المصنوع، فأهل الأرض يطلبون غرائب القدرة في السماء، وأهل السماء يطلبون غرائب القدرة في الأرض، وهمم الأرضيين إذا طلبت الحاجات انصرفت للعرش؛ فهو قِبلة الطلب لهم، وهمم السماويين إذا ضرعت انصرفت للكعبة؛ فهي قبلة طلبهم، وهنا سرٌّ غريب العرش قبلة الضراعة للأرضيين، والكعبة قبلة العبادة، والكعبة قبلة الضراعة، للسماويين، والعرش قبلة العبوديَّة، والفريقان في بحبوحة العجز عن معرفته، يقول سيدهم: سبحانك ما عرفناك حق معرفتك، وإنَّ المقربين من أهل السماء الذين انكشفت لهم غرائب القدرة المطويَّة في عالم الأرض، كما أنَّ المقربين من أهل الأرض الذين انكشفت لهم غرائب القدرة المطوية في عالم السماء، ونقل عنه الوتري في محل آخر من كتابه أنَّه قال: طهِّر لسانك من لوث الكلام

فيما لا يعنيك كي يرفع كلامك إلى حظيرة قدسه إلى الحضرة السماويَّة العرشيَّة التي جعلها جهة الطلب كما جعل الكعبة في الأرض جهة العبودية ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر: ١٠]، إلى الجهة التي صرف إليها همم خلقه إلى محل تنزلات أمره ليأتيك أمره وكرمه ولطفه من العلوِّ فتخضع دونه وتراك حقيرًا سافلًا، والأسرار القرآنيَّة واضحة المفاد بهذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذّاريَات: ٢٢]، انتهى كلامه الشريف،

ومن الأحاديث المتشابهة

أحاديث نزوله سبحانه كل ليلة إلى سماء الدنيا [١٨/أ] وهو لا ينافي ما ذكرناه، ولا يستلزم إثبات الجهة ولا اتصافه تعالى بالحركة والنقلة؛ فإنَّها عروض، والأعراض يلزمها الحدث، والحدث على القديم محال على ما هو مقرر في الكتب الكلاميَّة، ولسنا له الآن، وإنَّما القصد تخريج صفة النزول على ما يوافق القواعد التي مهدناها في صفته سبحانه، ولا بد لك حينئذٍ من مراجعة ما تقدم في الاستواء على العرش، فتعلم أنَّ صفة النزول من لوازم صفة الاستواء، وقد تقدم أنَّ صفة

الاستواء هو قيامه في عالم الأمر بسرِّ التدبير فنزوله حينئذ هو نزوح روح الأمر بسر التدبير من حضرة الاستواء وهو العرش إلى سائر دوائر الكائنات لحكمة التعرف، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يُونس: ٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطّلَاق: ١٢]، ثم بيَّن ذلك النزول لحكمة التعرف بقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطّلَاق: ١٢] تنبيه: إنَّما نسب النزول إليه سبحانه؛ لأنَّ روح ذلك الأمر وهو مظهر نور التوحيد، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [النّحل: ٢]، وقد بينا أنَّ نور توحيده هو وجهه سبحانه؛ فلهذا جعل نزول أمره بمثابة نزوله، ومعرفتها بمثابة معرفته تحقيقًا؛ لأنَّ من عرف نفسه فقد عرف ربه، ومن المتشابه صفة مجيئه سبحانه وتعالى وإتيانه في نحو قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النّحل: ٣٣]، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفَجر: ٢٢]، وهو أيضًا يرجع إلى معنى المحكم ولا ينافيه؛ لأنَّ من المحكم قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾

[النّبَإِ: ٣٨]، فإذا رددت إليه قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفَجر: ٢٢] علمت أنَّه يتجلى [١٨/ب] بوحدانيَّته في الروح، وأنَّ المجيء للروح، ونسب إليه تعالى كما نسب نزول الروح إليه؛ لتجليه فيه، ويحققه أنَّ الروح هو من عالم الأمر وقد قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ [النّحل: ٣٣].

٥. (فريدة): شهادة التوحيد

بقي أن نتكلم على الاستدلال على عظيم قدرته وكمال سلطانه بمصنوعاته، وإنِّي قررت من ذلك شيئًا لطيفًا في بعض اللوامع التي حررتها في كتابي (ضوء الشمس)[١]، منها هذه اللامعة المضيئة وهي:

شهادة أن لا إله إلا اللّٰه

أول دعمة ترفع ذرى الحصن الإسلاميِّ، وتزين بناء قصره الشامخ السامي لأنَّها أمُّ الأركان وكل الإيمان، وعليها تدور رحى الأركان الباقية، وبها نجاح الحالين في الدار الآخرة وفي هذه الدنيا الفانية، على أنَّ الشهادة الأولى القول بالتوحيد وهو الركن الأقوم السديد؛ لأنَّ جملة الهياكل المصنوعة والآثار الموضوعة قائلة بلسان الحال والمقال بالتوحيد راجعة إلى هذا

---

(١) ضوء الشمس: من كتب المؤلف في تفسير حديث «بني الإسلام على خمس . . .»، جاء في مجلدين، معظمه في فقه السادة الحنفية.

المنهج الوحيد، ولا يربط العقل إلا بهذا الاعتقاد، ولا يطمئن القلب دونه بدليل ولا باستشهاد، بل كلُّ شيءٍ يدلُّ على الوحدانيَّة الربانيَّة، ويعترف هيكل عجزه بعظمة الألوهية، كيف لا والطبائع المصنوعة إذا تتبعت نهايتها انقطعت أصولها ووهى مدلولها، ورجعت إلى قدرته وانتهت إلى صنعه وحكمته؟! أجل كيف بك أيُّها الكريم الشيم إذا أحسن إليك محسن ولو بشربة ماء، ولو كان من أتباعك وخدمك؟ ألا ترى أنَّه من الواجب عليك بحكم الطبيعة أنْ تبش في وجهه وتقابله بالشكر لتسقط عنك حمل إحسانه ومعونته لك؟! وهلَّا إذا سقاك الماء خادمك ونهرته وأغلظت عليه القول لصنيعه ترى عند نفسك مؤاخذًا ملومًا، نعم، وهو المدرك المعلوم عند كل ذي لبٍّ وعقل، فإذا كان ذلك ونعم الرب جلَّ علاه قائمة معك في وجودك ببصرك وقواك [١٩/أ] وتركيب صورتك على أحسن صورة، وما أنت عليه من الهيكل الإنساني، وبوهب العقل والفهم والنطق والإدراك والتدبر وغير ذلك ممَّا لا يعد، وبعده سترك وتداركه لك بلطفه وحفظه وصيانته كل آن ولحظة، وجوده وكرمه عليك بأكلك أنواع النعم، وشربك أنواعها، ولباسك أحسن الملابس،

ونومك في مهد الراحة والأمن، وحفظك حالة نومك وتفكه نفسك بما أخرجه لك من الأرض وأنزله لك من السماء، وتسخير كل نوع مخلوق لك، واستخدام كل طبيعة نوعيَّة لطبيعتك، فهل لا يجب عليك توحيده جل علاه، والتوجه بكليتك إليه؟ والاعتماد دون غيره بالإخلاص عليه والشكر له على ما أنعم؟ والحمد له على ما أكرم؟ والاستقامة عند هذه الوجهة التي انصرفت إليها ذرات الأكوان، وكلَّ عن أداء شكرها كل لسان، وهل من وجهة سواها على أنك إن تركت وأهملت حقوق هذه النعم فقد كفرت هذه الحقوق الواردة إليك، وإن صرفتها إلى غيره فقد أوجبت لكل ما وصل إليك حق الشكر عليك، فهل لك من إحاطة بكل ذلك؟ أو هل يسلم لك عقلك فيما هنالك؟ لا والله، بل العقل عليك إن جحدت شاهد، وبهذا الباب تتوحد المشاهد،

ولينظر هنا إلى ما قاله العلامة شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع[1] في مقدمة كتابه (سلوك المالك): من

---

(١) ابن أبي الربيع (٢١٨ - ٢٧٢ هـ = ٨٣٣ - ٨٨٥م) أحمد بن محمد بن أبي الربيع، شهاب الدين: أديب، كان من رجال المعتصم العباسي، له

=

الواجب على كل إنسان الابتداء به هو أن يعلم ويعتقد أن لهذا العالم وأجزائه صانعًا بأنَّ يتأمل الموجودات كلها بأنَّ لكل واحد منها سبب وعلة أم لا ، فإنه يجد عند الاستقراء لكلٍّ واحد منها سببًا عنه وجد، ثم ينظر إلى تلك الأسباب القريبة من الموجودات هل لها أسباب أيضًا أم لا؟ فإنَّه يجد لها أسبابًا ثم يتأمل وينظر هل الأسباب ذاهبة إلى ما لا نهاية له؟ أم هي واقفة عند نهاية أم بعض الموجودات أسباب للبعض على سبيل الدور؟ فإنَّه يجد القول بأنَّها ذاهبة إلى غير نهاية محالًا ، ويجد القول بأنَّ بعضها سبب للبعض على الدور محالًا أيضًا ؛ لأنَّه يلزم أن يكون الشيء سببًا لنفسه، فتبقى الأسباب متناهية، وأقل ما يتناهى إليه الكثير هو الواحد، فسبب الأسباب موجود وهو واحد، والعبارة عنه بما وجد السبيل إليه من الألفاظ والأوصاف، فلمَّا أراد العبارة والوصف له علم أنَّه لا يلحقه شيء من جميع الأوصاف التي شاهدها وعلمها ؛ لتفرده بذاته ولأنَّه متنزه عن كل ما أحسه وعرفه، ولم يجد طريقًا أحسن من أن ينظر في الموجودات التي لديه، فإذا تأملها وجدها صنفين،

= تصانيف عديدة منها : (سلوك المالك في أخبار الممالك).

فاصلٌ وجسميٌ، ووجد الأليق بسبب الأسباب وموجدها الواجد الحق أن يطلق عليه أفضلهما مثل أنَّه رأى الموجود والمعدوم، وعلم أنَّ الموجود أفضل من المعدوم، فأطلق القول عليه بأنَّه موجود، ورأى الحيَّ وغير الحيِّ وعلم أنَّ الحيَّ أفضل فأطلق عليه القول بأنَّه حيٌّ، ورأى العليم وغير العليم فأضاف إليه العلم، وكذلك جميع الأوصاف، والواجب عليه إذا أراد صفته تعالى أن يخطر بباله أنَّه منزه عن أن يشبه تلك الصفة بل أفضل منها وأشرف وأعلى؛ لأنَّه سبب وجود كل صفة، انتهى.

ومن باب الاستدلال بالمصنوعات والدلالة على السبب لإرسال المرسلين العظام أصحاب المعجزات، قال شيخ الأمة وسند الأئمة الغوث الأكبر أبو العلمين مولانا السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنه ما نصُّه:

(أي سادة: سلطنة الألوهيَّة قائمة فردانيَّتها في كل ذرة بارزة ومطموسة، والذرات مقيَّدة في وهْدة حجبها ومعذورة غير الثقلين ما أجهل الإنسان ما أظلمه هذا إذا جهل من أوجده وأهمل سلطانه، ما أفضل الإنسان ما أكرمه هذا إذا عرف ربه وشهد إحسانه، أيها الإنسان بأيِّ شيء تروم إقامة الدليل لعقلك على واحديَّة مولاك وأحديَّته؟ [٢٠/أ] وهذا وجودك القائم بك

معك آية فيك تكفيك، يدق عرقك من كليَّاتك ويسري دمك من جزئياتك ويدور بريد التدبير في ذرَّاتك وكل نقطة من دمك في محلها مع اتحاد نوعها مختلفة الصفة وكل نثرة من بللك مع وحدة عينيَّتها مضادة أختها في نسقها، نثرةُ بلل ريقك غير نثرة بلل عينك، نثرة رشح عرقك غير نثرةِ رشح أذنك، صماخ أنفك غير صماخ إبطك، منبت شعرك كل مغرس منه مع وفاق الشكل مختلف في النسج والمثل هبطات فكرك في صحف قلبك غير ما سقته إلى حافظتك، غذاؤُك جدل لك في منافس وجودك أنواعًا حالة كونه نوعًا واحدًا، لا تقل منوع العينيَّات، ولذلك اختلفت مجدولاته؛ لو كان كذلك لاختلَّ النظام بنسبة اختلاف الأغذية، عظمك في مواطن منك تختلف عوارضه ونتائجه، وجلدك حالة كونه ظرفك ناصعة مادته بمظروفه على دقائق نسجه وفيه من غرائب النظم الخلقيِّ ما لو جرد عن المظروف ونشر على آلة كشَّافة لأعيى فهمك عن الوصول لحقيقة ظاهره لِما فيه من إفتاق النسج القائمة بسلامتك المناسبة لنظام وجودك هذه الإفتاق منها ما تدركه لو ذكرته لك ما شاء الله كان أي آدميٍّ، فتق أنفك أعطاك الشم، وفتق أذنيك أعطاك السمع، وفتق فمك أعطاك في لفيفة مجموعه الطعم، وفتق عينيك أعطاك البصر، وهذا جلدك

فيه أفتاق كثيرة، ألوف مؤلَّفة تأخذ الهواء وتدفع الأبخرة وتجمع الخضلات المجتمعة من الهواء والأبخرة فتوقفها على منصة الاعتدال ضمن دائرة تركيبك، زبدة دماغك فيها عاقلتك ومفكرتك، زبدة ساقك فيها قوة اعتدالك، زبدة صلبك فيها نقطة قوى هيكلك، زبدة معدتك فيها طرق معابرك، لوزة قلبك فيها قوة فهمك وقبلة [٢٠/ب] تلقِّيك وساحة نظرك واستدلالك المتصلة الحبل ببرزخ دماغك، ذوائب عروقك كنباتات الأكوان، بقعة رأسك الناهضة بقبَّة وجهك كالسَّماء فيها درج شعرك كالأطلس البحت، فيها سطح جبينك كخط الفلك، فيها مقلتاك كالكواكب، فيها جلدة خديك كأملس الرواق المقوم، فيها تركيب أضراسك في فمك كنظام الأبراج في معاريج خطوطها، فيها نبات وجهك كمنثور لواقح الأبخرة المخضلة المتدلية إلى مركز السكون، تقف وتتحرك بنسبة مواردها كشأن نبات شعر وجهك، وصلة رأسك بواسطة عنقك بهيئة وجودك كاتصال العالم العلويِّ بالأرض بواسطة حبال الاصطدام وذوائب الشعاع وخيوط الكواكب، دورة رأسك مع بسط ساحة صدرك كلف العالمين بطوريِّ كونيتهما لفًا لا يمسُّ حكم البسط، لينك حتى تصل يدك رجلك وبعضك بعضك، كانطباق

هذه المشاهد العليَّة والوضيعة ببعضها انطباقًا مساسيًا لا يدخل مادة بأختها، أيُها الإنسان: أنت مجمع هذه الغرائب، أنت كنز هذه العجائب، أنت نسخة هذه المضامين، أنت نقطة هذا التعيين، أنت حضرة هذا المشهد الأقدس، أنت محل نظر السر الأخفى ومعنى القصد الأنفس، أعرفت نفسك أين أنت من معرفتها؟ أنت شيءٌ حارت به الأشياء، أنت مادة انبجست من جزئها كليات الأجزاء بعد أن قمت كما أنت وعجزت عن أن تعرف ما أنت وقيَّدت عن تدبيرك، وحرت في تصويرك، تروم أيْ مسكين على من صورك دليلًا؟! وتطلب لمعرفته قيلًا؟! أيقظ عينك من سَنة غفلتك، يا عليل العقل يا كليل الفهم يا سقيم الرأي، تفكره للدنيا وبك أقام عليك الدليل تجهله للأمل، وأَعجزك عن كثِيرك بأقلِّ القليل، تزعم أنَّك عالم وأنت بوهدةِ الجهل فيه دون الأنعام، أتظنُّ أنك حققت إذ أقمت لك منابر وهمٍ فأشركت وأنت أضل من الهوام، مزق حجبك الكاذبة، وأرشد همَّتك الخائبة وتحقق بمعرفة ربِّك سبحانه، ما أعظمه سبحانه! ما أكرمه! [٢١/أ] رفع شراع العظمة بالمصنوعات، وأبرزك لتعتبر فعمِيت عن الاعتبار، فتداركك الكرم فأرسل لك من نوعك رسلًا تبين لك حقيقة الأسرار الكونيَّة، ودقائق الحكم

ورقائق الأحكام، وشرف مراتب المرسلين بخاتمهم الجامع للبراهين النظريَّة، والرموزات الاستدلاليَّة، والنصوص القاطعة والحكم الساطعة والحجج البديهية والمناهج الفردانيَّة، صاحب اللسان المؤيد، والفخر المخلد، والسلطان المؤيد، والأمر الذي لا يخذل، والحقّ الذي لا يجهل، والشرع الذي لا يرد، والخير الذي لا يجحد، رسول الحكمة، رسول الأدب، رسول العرفان، رسول الملاحم، رسول القدرة، رسول التواضع، رسول السلطان، رسول الإنصاف، رسول السَّيف، رسول العدل، رسول الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم الحكم العدل، ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشّورىٰ: ٥٣]، أعني سيِّدنا ومولانا الذي علمنا الحكمة وزكانا، تاج هام الإنسان وحبيب الرحمن محمد ﷺ، فقد جاء بالحكمة والموعظة الحسنة، وأمر أن يقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منه دماءهم وأموالهم على أن هذه الكلمة منبر التوحيد ومدار الحق، ومنار الشرع أسقطت الغيريَّة وأمرت بالرجوع إلى الإله الحق، ففرقت بين الخالقيَّة والمخلوقيَّة، وألزمت بإتباع أمر الله وامتثال رسوله عليه صلوات الله، كونه المأمور بإعلاء ما انطوى فيها من الأحكام القدوسيَّة والحكم اللاهوتيَّة، وأيَّد ما أقول قول

الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقام على إثره الصحابة والتابعون والأولياء والعارفون والعلماء العاملون، فمهَّدوا الطريق وأحكموا حكمة هذا العهد الوثيق، وأتقنهم فهمًا وأجمعهم حكمًا العارفون بالله الذين أخذوا أحكام الشريعة فعرفوا حكمها بأسانيدها المنقولة ورواياتها الطيِّبة المقبولة، وتخلَّقوا بأخلاق الله واتبعوا رسوله عملًا بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فآمرهم غير فظٍّ ولا عاد، [٢١/ب] ومأمورهم غير موشَّح بوشاح الترفع والعناد، يدورون مع الحق حيث دار، ولا يرون لأنفسهم في البين أثرًا، وإن كانوا أشرف الآثار: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] انتهى.

وقد سبق ما قلناه في الشهادة الأولى وهي: أشهد أن لا إله إلا الله، وحيث أنَّ تتمتها الشهادة الثانية أعني: وأنَّ محمدًا رسول الله؛ فلزم أن نذكر ما في الشهادة الثانيَّة من السرِّ العظيم والمعنى الكريم.

٦. (فريدة): شهادة أن محمداً رسول الله

إنَّه لمَّا نبَّه الشارع ﷺ على التوحيد، وحث على اعتقاد كلمته ألزم أيضًا كل مسلم الإقرار بالرسالة المحمديَّة، لِما في ذلك من حقائق الإيقاظ والتنبيه الدافع لكل جهل، والقاطع لكلِّ خزي وخذل، على أنَّ الحق جلَّت قدرته لمَّا أراد خلق الخلق اقتضت حكمته وأنفذت إرادته أن يرسل فيهم رسلًا منهم يعلمونهم الكتاب والحكمة؛ لأنَّه سبحانه وتعالى اختار في عالم أمره النوع الإنساني وكرمه على سائر أنواع المخلوقات، وقال في كتابه المحكم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقد جمع تعالى في هذا النوع مزايا الشرف والكمال، وخصَّه بالشِيم الزكية وحسن الأدب مع الامتثال، ولإتمام إحسانه على هذا النوع المحترم، تعرف إليه فأرشده لمعرفته وأظهره للوجود بعد العدم، وأرسل إلى النوع المذكور من نفسه رسلًا هم ملوك الهداية لبقية النوع، فأتقنوا عليهم الصلاة والسلام أمر الدلالة عليه، وقادوا البقية إليه فانقادت بالكره والطوع، فأوصلوا من

وفقه الله تعالى إلى ساحة المعرفة والهداية، وبلغوا من وصلها من دار القربة إلى أقصى الغاية، فلا زال هذا الأمر يدور ويتسلسل إلى أن وصل وإن كان موصولًا في الغائب لأعظم راعٍ وأكرم مرسل، فجمع القلوب على الله وأرشد الخلق إلى الله بالله، وقام بهمته المحمديَّة بحملة الإرشاد، فظهر بها ﷺ بأكمل القوة، وأجمل الاستعداد، ورفع منار الحق والدين وكف الغين عن العين، وأتى بكلِّ حجة واضحة بديعة وبكل معجزة [٢٢/أ] عظيمة رفيعة؛ فهو خليفة الله في الخلق قامع الباطل وناصر الحق، بل هو عليه الصلاة والسلام سيد الخلفاء الإلهيِّين وأعظم الأنبياء والمرسلين، الناصر الحق بالحق، والدافع لجيشات الأباطيل، والسدِّ النورانيِّ الفاصل بين الحقير والجليل، والموقف كل أحد حده الذي حدَّته له الشريعة الإلهيَّة، والواقف لإعلاء هذه الكلمة المباركة الربانية، والقائم بتنفيذ الأمر الإلهيِّ في الخلق، والحجة للضعيف على القوي بإماتة الباطل وإحياء الحق، فيا لهذا السر من سر! وجب إعزازه وإعظامه وفرض تكريمه واحترامه، على أن هذا السر العظيم شكلة حكمة التصريف في تنظيم أمر العالم، وهو الباب العالي الذي يلجأ

كل مظلوم إليه والحرم الأمين الذي يعول كل خائف عليه، والشأن الطبيعي المرموز بقلم النشء في هيكل الوجود والأساس الذاتيُّ المنقوش بطابع الهيئة على الوجه المقصود، والدَّهشة الفعَّالة في رقائق الأرواح، والهيبة الجوَّالة في دوائر مواطن الأشباح، كيف لا وهو الآمر المقدس الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فُصّلَت: ٤٢]، والزمام الأنفس الآخذ بعنان كل مخلوق على منوال حقيقته ووصفه، وقد ثبت ذلك في الكلام القديم، وشهد ذوقًا بمضمونه المكنون كل طبعٍ وقلبٍ سليم؛ لأنَّ الله جلَّ جلاله لمَّا خلق الناس وأسكنهم الأرض قال جلت عظمته للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البَقَرَة: ٣٠]، لِيكفَّ أذى الناس عن النَّاس ويحكم بالحق وبالحكم في الحق كلَّ سر خفيٍّ وشأنٍ جليل وحكم غير خافية لأهل العقول كافية، وربط سبحانه وتعالى سلسلة راحة المخلوقين بأمره الحقِّ المبين، وسلم أزمة أمور خلقه لخليفته ﷺ، فمهَّد بالأمر الإلهيِّ أركان العدل، وحكم بالحق، ونشر لواء الراحة، وحجب قدرة القويِّ عن الضعيف، وأخذ بالأدب مع الله في إنفاذ أوامره المقدَّسة، وحافظ شرف الوديعة، وانتدب [٢٢/ب] بباب الله

لإظهار حقائق أمر الله فرقص الهيكل الوجودي طربًا، وامتلأ الطرف الطبيعيُّ أدبًا حيث أنَّ نظام التصرف في أمر الوديعة إنَّما هو مرتب بديوان الكرم على حقيقة الطبيعة؛ فلذلك انتعشت به الأسماء وطابت به الطِباع ونقش سر: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]، بتأييد إشارة قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النِّسَاء: ١]، قال الإمام الرازيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية الكريمة: وكون الخلق بأسرهم مخلوقين من نفسٍ واحدةٍ له أثر في هذا المعنى؛ وذلك لأنَّ الأقارب لا بد وأن يكون بينهم نوع مواصلة ومخالطة توجب مزيد المحبة، ولذلك ترى الإنسان يفرح بمدح أقاربه وأسلافه ويحزن بذمِّهم والطعن فيهم، وقال عليه الصلاة والسلام: «**فاطمة بضعة منِّي يؤذيني ما يؤذيها**(١)»، وإذا كان الأمر كذلك فالفائدة في ذكر هذا المعنى أنْ يصير ذلك سببًا لزيادة شفقة الخلق بعضهم على البعض، فلمَّا بغى بعض الناس على البعض من الله فضلًا منه وكرمًا بالمرسلين العِظام، خلفاء الله الكرام، فدفع جل وعلا

(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما، والترمذي والنسائي في سننهما من حديث مسور بن مخرمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بدواء حكمتهم داء البغي والغلظة والجفا، وبدَّل ذلك بالعدل والعطف والصفا، وقام المرسلون والنبيُّون عليهم الصلاة والسلام بتأليف القلوب التي حجبها الجهل بحجاب الظلم والبغي؛ فانطمست بصائرها وتوحشت أربابها، وقادوا - شرَّف الله مقاديرهم - أزمة فروع العقول إلى ضئضئ التنسيق الأصليِّ، ومهَّدوا أركان العدل والإحسان، وهدموا قلاع الظلم والعدوان، وكشفوا غيهب الوهم بلمعان نور الفهم، فتبعهم من أراد الله به الخير من الخلق ففاز بجميل المسلك ولطيف المذهب وحسن الخلق، وعلت دولة حزبهم بصولة أنَّ: ﴿حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]، ولما منَّ الله على البرية بوصول نوبة البعثة إلى نبينا المعظم ﷺ انطمس شهاب نار الكفر،[٢٣/أ] ولمع شعاع نور الذكر، وتمَّ ببركته عليه الصَّلاة والسلام ما نقص من مكارم الأخلاق، وانتشر بهمَّته المحمديَّة علم العدل والصلاح في الآفاق؛ لِكونه جمع ما تفرَّق في إخوانه النبيين والمرسلين من الهِمم والشيم والأخلاق العليَّة الزكيَّة، والأوصاف الحميدة المرضيَّة، فلم يبق خصلة محمودة إلَّا

أوصل إليها ودل عليها، ولم يترك خصلة مذمومة إلَّا نهى عنها وحذر منها، وجمعت شرعته الطَّاهرة شتات الأحكام الصالحة؛ فصارت تجارة الخلق ببركة رسالته رابحة، وسرى سر خلافته في العوالم، وعلم الثَّقلان أنَّه عليه الصلاة والسلام أشرف نائب عن الربوبيَّة، وأعدل حاكم فإذا فهمت ذلك علمت ما للنوع الإنسانيِّ من التكرمة عند الله، وأدركت أنَّ أشرف أنواع الخلق الإنسانيِّ وأعلى مراتب الإنسان خلافة الله وأعلى مراتب خلافة الله الرسالة، وأعلى مراتب الرسالة مرتبة أولي العزم من الرسل عليهم الصَّلاة والسلام، وأعلى مراتبهم وأجمعها دعوةً، وأعظمها شرفًا، وأجلها قدرًا، وأرفعها ذكرًا، وأطولها سنامًا، وأشمخها مقامًا الرسالة المحمديَّة التي اختص بها الله سيد البريَّة ﷺ، فهو قطب الدائرة، ومفتاح باب سعادة الدنيا والآخرة، وهو ختم الختم ومحل الإفشاء والكتم، فكمال غيره كمال عن نقص، وكماله كمال عن كمال، أوتي جوامع الكلم، وانقطعت به نبوة التشريع، وقد أرسل وكان نبيًا وآدم بين الماء والطين، وغيره ما كان نبيًا إلا بعد تحصيل شرائط النبوة، فجميع النبوات والرسالات والولايات مُدرجة في نبوَّته وولايته ورسالته ﷺ،

وقد تبيَّن لك أنَّ الإنسان ثمرة العالم، وأنَّ عين الإنسان وعين إنسانه نبينا المعظَّم ﷺ، وهو رسول الله إلى الخلق كافة، والأصل في رسالته بالنسبة إلى الخلق الدلالة على الله، والإرشاد إلى الله، [٢٣/ب] وقود الخلق إلى مكارم الأخلاق، ولهذا المعنى نزلت الكتب وشُرعت الشرائع والسنن، وضربت الأمثال والمواعظ، واحتيج إلى الأنبياء والملوك والعلماء والوزراء والأعوان والإخوان والأصدقاء، وندب الإقتداء، ولولا ذلك لم يحتج أحدٌ إلى أحد، بل اكتفى كل أحد بنفسه، وعلى هذا المعنى ترتَّب الجزاء والعقاب والمدح والذم، فما رأيناه سبحانه أثنى على أحدٍإلا بعمل، ولا ذم أحدًا إلا بعمل، ولا أوعد إلا على عمل، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، جعل التقوى سببًا لذلك وهي عمل، وقال تعالى أيضًا: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ومن معنى الندب على الاقتداء قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:

٩٠]، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [الكهف: ٢٨]، وغيرها من الآيات الكريمة، ومن هذه المعاني قول النبي ﷺ: «**الكيِّس من دان نفسه وعمل لِما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله الأماني**[1]»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تُجالسوا كلَّ عالم إلا عالمًا، يدعوكم من خمسٍ إلى خمس من الشك إلى اليقين، ومن الكِبر إلى التواضع، ومن الرِّياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن العداوة إلى النصيحة**[2]»، فمن ذلك يعلم لديك أنَّ النبي ﷺ لمَّا كانت رسالته الرسالة الجامعة وشريعته الشريعة الناسخة، وهو المبعوث لتكميل مكارم الأخلاق، أوضح الطرق وفتح الأبواب ومهَّد المناهج وسهل الأسباب، ولزم كل ذي طبعٍ كريم وقلب سليم أنْ يتمسَّك بحبل شريعته، وأن يتشبث بذيل طريقته، فمن ثم أنَّ كمال الاقتداء بالحضرة المحمديَّة عين السعادة الكليَّة، فمن فاته كل الاقتداء به عليه الصلاة والسلام

(١) أخرجه ابن ماجة والترمذي في سننهما من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.
(٢) قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية من رواية شقيق عن عباد عن أبي الزبير عن جابر.

في حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله فعليه أن يلزم تعظيم أمره ﷺ [٢٤/أ] بعمل الذي لا بدَّ منه من العبادات المفروضات، والانتهاء كل الانتهاء عمَّا نهى عنه من المعاصي والخطيئات، والتخلُّق بأخلاقه الكريمة على قدر الإمكان، وإعمار أمر الدنيا والدين بسلوك طريقته المؤيدة، عليه من الله أكمل الصلاة وأشرف التسليمات.

٧. (فريدة): أركان الإسلام الخمسة

قد علمت أنَّ من أشرف ما يجب بعد معرفة الله سبحانه وتعالى معرفة شأن الأنبياء العِظام عليهم الصلاة والسلام، ومن أشرف أسرار معرفة شؤونهم معرفة شأن النبي ﷺ، وقد علمت أنَّه عليه الصلاة والسلام بُعث لتكميل مكارم الأخلاق، وقد بني هذا الدين بأمر الله القوي المعين على خمسة أركان، وشاد تلك الأركان ببنيان الحكمة الذي هو أعظم البنيان؛ فلزم على من أراد أن يعرف سرَّ هذا الوجود أن يتحقق بمعرفة الأركان الخمسة، التي بني عليها الدين؛ فإنَّ فيها من الحكم البالغة ما ينور أفئدة العارفين، والأركان الخمسة المذكورة أوضحها سيد الوجود ومعدن الكرم والجود، بقوله عليه الصلاة والسلام: «**بُني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان**[1]» أخرجه الإمام أحمد في مسنده والبخاري ومسلم في

(١) هذه الرواية السابقة في الكتب المذكورة من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

صحيحيهما والترمذي والنّسائي.

نعم، جاء بطرقٍ عديدة وروايات كثيرة إلا أنَّ كل معناها واحد؛ ولذلك اكتفينا بذكر هذه الرواية الشريفة، وقد تكلَّم سيدنا الإمام الرفاعي ﵁ على حكم هذه الأركان الخمسة بكلام شريف تطمئن به القلوب، وتطلع منه البصائر على أشرف أسلوب، وهو قوله - لا زال ينهل فضله -: أي سادة، نظام هذا الدين صلح بمكارم الأخلاق، وهي على أربعة أركان:

فالأول: إيفاء حقوق الله تعالى، والثاني: إعظام شأن رسوله ﷺ، والثالث: منع النفس عن كل ما يستتر لأجله؛ خيفة العيب والسؤال، والرابع: بذل المعروف لخلق الله تعالى [٢٤/ ب] والكف عن كل ما يؤذيهم من قولٍ وفعل.

واعلموا أي سادة: أنَّ من حقوق الله تعالى الغيرة لأوامره أن تُمتثل، ولنواهيه ألّا تهمل، ولكتابه أن يُنصر، ولرسوله أن يُوقَّر، وللقائه أنْ يُنتظر، الله الله! يحذركم الله نفسه. هذه الصلاة يراها المارق والجاحد والكافر والذي في قلبه مرض فيعجب لفاعلها، كيف توضأ وانتهض قائمًا مستقبلًا القبلة يركع ويسجد ويقوم ويقعد؟ والعارف في حضور مع ربِّه في حضرة الصلاة

هذه حضرة كل الحكم، نعم نحن لا نعمل للعلَّة، ولا نصرف العمل للعلَّة، ولكن نشكر من طوى الحكم بأعمالنا.

هذا الوضوء يدفع كسل الأعضاء، ويحرك نشطة الدم الصالح في العروق، ويُصلح حرارة الأطراف، ويسكِّن في الرأس ثائِرة البخار، والاستنجاء النقيُّ الشرعيُّ يدفع شر تسعة أدواء تصل إلى الباطنة من عدم الطهارة، أقلها: شبة الغلظة في العروق، وحكم طهارة الثوب والبدن والنظافة فيهما وإن كانت الأثواب أطمارًا فإنَّه يقي من وعث البشرة، ويحفظ من صماخ الجلد الذي يثبت في ورقة الجلد الحرارة الخضلة، الذي يقوم بالحكة والجرب والنزعة الصفراء في العروق، والحموضة الكافلة لتوليد الدمامل القبيحة، وما أحسن ما جاء في السنة من الاغتسال يوم الجمعة! وأحسنه ما كان عن طهر،- أي لم يكن عن سبب جماع -، وفي ذلك من إكمال رتبة الحكمة الصالحة لنظام الوجود الآدمي ما فيه بلاغ، وقد استحسن الوضوء في كلِّ وقت من الأوقات الخمسة ولو أمكن المرء إمرار اليوم بوضوءٍ واحد؛ لِما فيه من المنافع المغيثة للأنف، بدفع سفسافه المضر بطرق الحلقوم التي تتدلى إلى الصدر، ولِما فيه من المنافع

المغيثة للفم، بتبديل غطته المشتملة على كثير من العوارض اللازمة التبديل، والصالحة لإصلاح رائحته وتنقيته، وتبريد شوطته التي ترمض لحم الأسنان، وتكلف عروقها الملاصقة لصفها، وما أحسن السواك مع الوضوء وبعده! وفي غسل الوجه ومسح الأذنين من إبراد حرة [٢٥/أ] الجلدة ما يُصلح البشرة، ويحسن مختلف دمها، ويزيد الدم الصالح زيادة رشف كرار لا يفسد الأصل، ولا يبقيه على فساده، ويزيل خسة الصمخ من العينين والأذنين فيصلح طريقهما، وهذا الوقوف بين يدي الله هو الاعتراف لله بالواحديَّة، والقيام بين يديه تعالى بذلة العبديَّة، علمًا بأنَّه سبحانه هو الذي يحيي ويميت، ويعطي ويمنع، ويضرُّ وينفع، ويفرق يجمع، ويصل ويقطع، وإليه المصير، فإذا وقف العبد هذه الوقفة نزل عن مطيَّة غُروره، ودعوى فعله، وتسربل بسربال العجز بنفسه فاستند في كلِّ أفعاله إلى الله تعالى، وتحقَّق أنَّه سيُحشر ويُعرض على الله، وأنَّ الله سيسأله عن أفعاله كلها، وهنالك يقف عند حدِّ عبديَّته، فلا يتجاوز على خلق من خلق الله، ويأمن الناس كلهم بوائقه، فإذا أبرزه الله حاكمًا قادرًا على الناس أوقفهم عند حدودهم، وأمَّنهم من بعضهم، وأقام كلمة

الله فيهم، وقاتل عليها، وقتل لها، وإذا أبرزه الله محكوًما رضي بحكم الله، وانقاد لأمر الله، وكان مع الحقِّ لا مع نفسه، عظَّم من فوقه إعظامًا لأمر الله، وأعان من هو مثله لوجه الله، ورحم من دونه مرضاة لله، وأمُّ هذه الحكم الصلاة، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العَنكبوت: ٤٥]، يعني الذكر الجامع لأحكام العبديَّة الذي هو الصلاة أكبر سلطانًا على النفس من كل شيءٍ، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العَنكبوت: ٤٥]، ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧]، ولمَّا كان الإنسان مجبولًا على النظر إلى الآثار والنظر إليها، يهشُّ به إلى نسيان الأوامر والنواهي، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحَجّ: ٦٥] افترض سبحانه على العبد الصلاة في اليوم والليلة خمس مرات؛ لينقطع عن النظر إلى الآثار وإلى طوالع الأحوال والأزمان، فإن كان في قوةٍ مطغية ذكر قوة الله الذي أزال من هو أقوى منه، فهدم صومعة غروره، وذل لربه، وإن كان في مالٍ مُطغٍ [٢٥/ب] ذكر صدمة قدر الله الذي أفقر من هو أغنى منه، فانكسر لسلطانه، وإن كان في دَعَةٍ وأمنٍ ذكر تصرُّف عظمة الله الذي أخاف من هو أكثر دعةً، وأعزُّ أمنًا،

فنكَّس هامة الغفلة، وعكف على عتبة الكرم، وإن كان في كربٍ فادحٍ، وعسرٍ مزعج، ذكر لطف الله وخوارق عناياته، فإنَّه فرج عمَّن هو أسوأ منه حظًا، وأهم منه كربًا، وأضيق منه منزعًا، فاطمأن بلطف ربِّه، وركنت همَّته للاعتماد عليه سبحانه، الصلاة الصلاة، هي عمود الدين، سلَّم القرب من الله، حصن الأمن والإيمان، أين أنت يا أعمى البصيرة؟ ظننت أنَّ الصلاة كلهوتك في خلوتك، كغِلظتك في جلوتك، اللَّهم إنَّا نعوذ بك من فهمٍ سدَّه وأعماه دعوى الفهم، اللَّهم إنَّا نعوذ بك من عقلٍ يلتقط طيره حبَّات الشُّبه، ويألف جيفها، ولا نصيبَ له من الحكمة، هذا الصوم نور القلب، صيقل الفؤاد، يفتح أبواب الفكرة المصديَّة، ويجلو غبار مرآة السر.

يقول المطموس الفهم الميت القلب: ما هذا الجوع؟ ولأيَّ شيء؟ ولسان الحكمة يقول له: هذا مجمع الحِكم، يصوم الصائم إيمانا واحتسابًا، ذلةً لله، وذبولًا تحت شراع الأمر الإلهيِّ؛ ليأخذ من سر الصوم ظاهر حكمة الحكم العدل، الذي ساوى بما يؤول إليه بين الحرِّ والعبد، والملك والمملوك، والكبير والصغير، والعظيم والحقير، والمأمور والأمير؛ فيتخلق

بأخلاق الله، وينصف الناس منه في كل شؤوناته، وعلى قدر حاله، وأقل المراتب: أن ينصف نفسه، ويتحقق بمقام الإنصاف؛ تخلقًا بأخلاق العدل الحيِّ القيوم، هذا إذا لم يكن له قدرة متعديَّة على غيره الَّبتة، ويذكر إن كان غنيًا حال الفقراء فيرحمهم ويحنو عليهم ويحسن إليهم، وإن كان فقيرًا فيحمد الله الذي ساوى بينه وبين من هو فوقه، ويحسن الظنَّ بالله أن يلحقه بالأغنياء الشاكرين في النعمة كما ألحقه بهم في الحكم، وهناك يكثر الدعاء لإخوانه الفقراء، بل ولكل المسلمين، ويعلم أنَّ الإفطار لا يصح إلَّا على الحلال، والسحور لا يكون إلَّا من الحلال، [٢٦/أ] والصدقة لا تُعطى إلَّا من الحلال؛ فيجهد للحلال ويكفُّ عن الحرام، ويخشع في مقام عبديَّته، مترقبًا نفحات الأنس التي تحصل لأهل المشاهدة والحضور في رمضان، والحضور هو الغيبة عن الأغيار، ودوام الخشية منه سبحانه، وقد يكون جمع الهمَّة في الصيام بواسطة القلب؛ فهو كعبة الحضور حالة الصوم، كما أنَّ الكعبة قِبلة الحضور حالة الصلاة، وما القلب والكعبة إلَّا جهتان معينتان لمحاضرة أسرار الحق، وإلَّا فالمعبود الحق هو الله، والمقصود بالذات هو، وإنَّه

لمنزَّه عن الجهة والمكان، ولو كانت مواقع الأسرار تدل على الجهة لاختلفت الجهات، وتشتت عزم العزيمة، وضاع المطلوب، ولم يكن القصد من هذه الجهات المعينة للمحاضرة إلَّا جمع الهمة، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَـرَة: ١١٥]، هذا في مقام المحاضرة، وفي مقام تعفير الوجه بخدمة العبوديَّة، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البَقَـرَة: ١٤٤]، وإذا تريَّض العبد بالصوم خرج من كثافة عادته، وسُلَّ من غمد غفلته كما يُسلُّ السيف من قِرابه، وهناك يصلح لكلِّ عملٍ دينيٍّ ودنيويّ، وإلَّا فمن أثقلته عادته ونام على وتدها فهو ربيطها، وحلس غائلتها، ومثل ذلك الرجل لا ينتفع به، لا في مهمات الدنيا ولا في سُبل الآخرة، وكلُّ أخٍ لا ينفع في الدنيا، لا ينفع في الآخرة، هذه الزكاة برُّ الصالحين وكنز العارفين، تعطى من الحلال عن الحلال، للذين قسم الله، وكلمة الزكاة ناطقة بكلية معانيها باقتناء الحلال وطلبه من الطريق المرضي، تأمر بمعناها المقصود بالتجارة والزراعة والصناعة، وطرح البطالة والتعاون في الله، والرأفة بالمسلمين، والرحمة لهم مُلزمة بشكر النعمة، جاذبة همم أهل الفاقة للسعي الصالح وطلب الرزق، وفيها من

أسرار العلم حكم أُخر تصلح لأهل النهاية، وهذا الحج موسم المخلصين، تجارة الموفقين، أنموذج القدوم على الحيِّ القيوم، تشد فيه الرحال إلى بيت الله وزيارة نبيه عليه [٢٦/ب] أفضل صلوات الله، والبقاع التي ارتضاها الله بعد اقتناء الزاد والراحلة واستكمال شروط الاستطاعة، مالًا وبدنًا وغير ذلك، ولا يصح ويقبل إلا من مال حلال، فكلمته المباركة بكلِّ غنتها تسوق إلى جمع المال الحلال وهجر الكسل في الأعمال، وفيه من جمع الكلمة على الأمر الإلهيِّ المرضي معانٍ تظهر لكلِّ ذي لبٍّ يريد الله به الخير، ينهى لسان حاله عن الخلاف، ويأمر بالوفاق، ويشد مئزر العزم؛ لاستحصال المطلوب المرضيِّ ولو بشق الأنفس، ويحرض على وقاية عصابة الأمة؛ لتتمكن من حفلة دينها، فتؤديها طيبة الخاطر آمنة القلب، وضمن هذه المعاني الشريفة معانٍ لو أردنا سردها لسوَّدنا أسفارًا، وأطشنا ألبابًا، وإنَّ الحكمة الجامعة لكلِّ هذه الحكم قول المؤمن المسلم الموقن الخالص: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

التوحيد لباب الحقائق وروح الحكمة وكنز كل خير، والواسطة العظمى، بل الوسيلة الكبرى فيه رسول الرحمة الذي

جاء بالحق، ومحا الشكوك وأصلح طرق القلوب؛ فقابلها من بارئ قوالبها القبول، اللهم صلِّ عليه وسلِّم صلاة وسلامًا يليقان برفيع قدره الذي اخترته له؛ إعزازًا لجنابه، وإعظامًا لمرتبته في حظائر قدسك لتقرَّ بعنايتك فيه عينه، ويطيب قلبه، وتفرح همته، إنَّك أهل التقوى وأهل المغفرة، وارحمنا بمحبتك له، ونوِّر قلوبنا بمحبته، ومنَّا عليه وعلى آله وأصحابه أكمل الصلاة والسلام إيمانًا بك، وإيقانًا برسالته، وانتهاضًا لمرضاتك، ولا حول ولا قوة إلَّا بك يا عليُّ يا عظيم، انتهى.

٨. (فريدةٌ): مسائل في العقيدة

إنَّ لباب معتقدات أهل السنة والجماعة، ١- هو أنَّهم يعتقدون كما سبق تقريره أنَّ أول ما يجب على العاقل البالغ القصد إلى النظر والاستدلال المؤديين، إلى معرفة الله ﷻ؛ لأنَّ الله ﷻ أمرنا بالعبادة فقال ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيّنة: ٥]، والعبادة لا تصح إلَّا بالنية؛ لقوله [٢٧/أ] ﷺ: «**إنَّما الأعمال بالنيات**[1]»، والنية هي القصد، تقول العرب: نواك الله بحفظه أي قصدك الله بحفظه، وقصد من لا يعرف مُحال، فدلَّ على وجوب النظر والاستدلال وما لا يتوصل إلى الواجب إلَّا به، يكون واجبًا كالواجب، ألَا ترى أنَّ الصلاة كما كانت واجبة ثم لا يُتوصل إليها إلَّا بالطهارة، صارت الطهارة واجبة كالواجب، فكذلك أيضًا في مسألتنا؛

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، وابن ماجه وأبو داود في سننهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

لأنَّه إذا كانت معرفة الربِّ ﷻ واجبة، ثم بالتقليد لا يُتوصَّل إليها، دلَّ على وجوب النظر والاستدلال المؤديين في ذلك، وقد أمرنا الله ﷻ بذلك، ودعانا إليه فقال ﷻ: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨﴾ [الواقعة: ٥٨] ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ [الواقعة: ٥٩]، ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ۝٦٩﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩] ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨﴾ [الغاشية: ١٧-١٨] وقال ﷻ إخبارًا عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦﴾ [الأنعام: ٧٦]، وأمرنا بإتباعه فقال ﷻ: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٥]، ٢- ثم يعتقدون أنَّ التقليد في معرفة الله ﷻ لا يجوز؛ لأنَّ التقليد قبول قول الغير من غير حجَّة وقد ذمَّ الله ﷻ المقلِّد فقال ﷻ: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ [الزخرف: ٢٤] لمَّا قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]؛ ولأنَّ المقلدين تتساوى أقوالهم فليس بعضهم بأولى من بعض، فعلى هذا لا يجوز تقليد العالِم للعالِم، ولا تقليد العاميِّ للعالِم، ولا تقليد العالِم

للعاميِّ، فإنْ قلت: لم جوَّزتم تقليد العاميِّ للعالِم في الفروع ولم تجوِّزوه في الأصول؟ قيل: لأنَّ الفروع التي هي العبادات دليلها السمع، وقد يصل إلى العالِم من السمع ما لا يصل إلى العاميِّ، فلمَّا لم يتساويا في معرفة الدليل جاز له تقليده، وليس كذلك الأصل الذي هو معرفة الربِّ [٢٧/ب] ﷻ؛ فإنَّ دليلها العقل، والعاميِّ والعالِم في ذلك سواء، فإنَّ العالم إذا قال للعاميِّ: واحد أكثر من اثنين لا يقبل منه، ٣- ثم يعتقدون أنَّ لهذا العالم صانعًا صنعه، ومحدثًا أحدثه، وموجِدًا أوجده من العدم إلى الوجود؛ لأنَّه حال وجوده وهو شيء موصوف بالحياة والسمع والبصر لا يقدر أن يحدث في ذاته شيئًا، ففي حال عدمه وهو ليس بشيءٍ أولى وأحرى أن لا يوجد نفسه، ٤- ثم يعتقدون أنَّ مُحدث العالَم هو الله سبحانه، وأنَّه واحد أحد، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ٥- ثم يعتقدون أنَّ الله ﷻ قديم أزليٌّ أبدًا كان وأبدًا يكون؛ لأنَّه لو كان محدثًا لافتقر إلى محدِث، وذلك المحدِث إنْ كان محدثًا

افتقر إلى محدِثٍ آخر، ويؤدي ذلك إلى التسلسل وعدم التناهي، وذلك مُحال، ٦- ثم يعتقدون أن ٱلله ﷻ لا يشبهه شيءٌ من المخلوقات ولا هو يشبه شيئًا منها، قال الله ﷻ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشّورىٰ: ١١]، ٧- ثم يعتقدون أنَّ الله تعالى ليس بجسم؛ لأنَّ الجسم هو المؤلَّف، وكل مؤلَّف لا بدَّ له من مؤلِّف، وليس بجوهر؛ لأنَّ الجوهر لا يخلو من الأعراض، والعَرض الذي لا يكون ثم يكون ولا يبقى، ٨- ثم يعتقدون أنَّ الله تعالى المحدِث للعالَم موصوفٌ بصفاتٍ ذاتيَّة وصفات فعليَّة، فأمَّا **الصفات الذاتيَّة**: فهي ما يصح أن يوصف بها في الأزل، وفي ما لا يزال كالعلم والقدرة، وأمَّا **الصفات الفعليَّة**: فهي ما لا يصح أن يوصف بها في الأزل، ويصح في ما لا يزال كالخلق والرزق، ٩- ثم يعتقدون أن الله تعالى عالِم بعلمٍ واحدٍ قديم أزليٍّ يتعلق بجميع المعلومات، فلا يخرج معلوم عن علمه؛ لأنَّه ﷻ موصوف بصفات الكمال لا بصفات النقص، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦]، ١٠- ثم

يعتقدون أنَّ الله ﷻ قادر بقدرة واحدة قديمة أزليَّة تتعلق بجميع المقدورات فلا يخرج مقدور عن قدرته تعالى، [٢٨/أ] ١١- ثم يعتقدون أنَّ الله تعالى مريد بإرادة قديمة أزليَّة، فجميع ما يجري في العالم من خيرٍ أو شرٍّ، أو نفعٍ أو ضر، أو سُقم أو صحة، أو طاعة أو معصية، فبإرادته وقضائه؛ لاستحالة أنْ يجري في ملكه ما لم يرده، قال الله ﷻ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البُرُوج: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعَام: ١٢٥]، والكلام في هذه المسألة مع القدرية يطول؛ لأنَّهم ينفونها وذلك أنَّ العقل عندهم يوجب ويحسن ويقبح، وعند أهل الشرع الحسن: ما حسَّنته الشريعة، والقبيح: ما قبَّحته الشريعة، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسرَاء: ١٥]، فعلم بهذه الآية أنَّ الله تعالى لم يوجب على العقلاء شيئًا من جهة العقل، بل أوجب عند مجيء الرسل من قبل الله تعالى، ولأنَّ العقل صفة للعاقل وهو محدث مخلوق لله تعالى وليس بقائم بنفسه، ولا حي ولا قادر ولا متكلم، وما هذه حاله فلا يصح أنْ يوجب على العقلاء ولا غيرهم شيئًا، ولا أن يحرم ولا أن يقبح شيئًا،

ولا أن يعلم به غير المعلومات التي تتعلق به كجميع العلوم، وإذا كان الأمر كذلك لم تصر الأفعال حسنة واجبة بإيجابه، ولا محرمة قبيحة بتحريمه، ولا مباحة كسائر الحوادث؛ لأنَّه محدث مخلوق كسائر العلوم والحوادث، فإن قيل: إذا قلتم أنَّ الله ﷻ مريد للمعاصي خالق لها، فبأيِّ شيء يستحق العبد عقوبته؟ يقال لهم: هل تثبتون أنَّ الله تعالى مريد للطاعة خالق لها أم لا؟ فإن قيل: ليس بمريد لها، ولا خالق فلا كلام معهم، والأولى السكوت عنهم؛ فقد كذبوا الربَّ في خبره، قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [الزُّمَر: ٦٢]، وإنْ قيل: مريد لإيجادها وخالق لها يقال لهم: فالعبد بأيِّ شيء ينال الثواب والدرجات؟ فكلُّ دليل لهم هنا هو دليل لنا هناك، فكما أنَّه يقدرنا على فعل الطاعة ويخلقها لنا، ثم يثيبنا عليها بفضله، فكذلك أيضًا يقدرنا [٢٨/ب] على المعصية ويخلقها لنا، ثم يعاقبنا بعد له؛ لأنَّه متصرف في ملكه على الإطلاق، وقد روي في الخبر أنَّ الله ﷻ أوحى إلى أيوب لو لم أخلق لك تحت كل شعرة صبرًا لما صبرت، ثم بعد ذلك يمدحه ويثني عليه بقوله: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ [صٓ: ٤٤]، فإذا كان

الرب ﷻ خلق له الصبر، فأيِّ شيء نال هذا المدح والثناء، فدل على أنَّ الأمر ما ذكرناه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وأجمعت الأمة على قول: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرّعد: ٢٧]، فإن قيل: فقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: ٧]، قيل: أراد ولا يرضى لعباده المؤمنين دون الكافرين، فإن قيل: فقد قال الله ﷻ إخبارًا عن موسى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القَصَص: ١٥]، قيل: أراد به هذا ممَّا يعمل الشيطان مثله، ولم يرد به هذا ممَّا يخلقه الشيطان بدليل قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ثم يقال: جميع أفعال الخلق أعراض فلو كان للمخلوق قدرة على خلق بعضها لكان له قدرة على خلق جميعها، ثم لا فرق بين خلق الأعراض وخلق الأجسام، فإنَّ العرض الذي لا يكون ثم يكون ويفتقر إلى محدث يحدثه ويوجِده، والأجسام كذلك أيضًا؛ فلو كان للمخلوق قدرة على خلق الأعراض لكان له قدرة على خلق الأجسام، وقد حكي: أنَّ بعض أهل

التوحيد يناظر مع قَدَري(١)، وكانا بقرب شجرة، فأخذ القدريُّ ورقة من الشجرة وقال: أنا فعلت هذا وخلقته، فقال له الموحِّد: إن كان الأمر كما ذكرت فردَّه كما كان؛ فإنَّ من قدر على شيءٍ قدر على ضده؛ فانقطع.

١٢- ثم يعتقدون أنَّ الله ﷻ سميعٌ بسمعٍ قديمٍ أزليٍّ، وبصيرٌ ببصرٍ قديمٍ أزليٍّ أبدًا، كان موصوفا بهما، وأبدًا يكون، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ١٣- ثم يعتقدون أنَّ الله ﷻ متكلم [٢٩/أ] بكلامٍ قديمٍ أزليٍّ غير مخلوق ولا محدث ولا مفترىً ولا مبتدع، بل أبدًا كان متكلمًا به، وأبدا يكون؛ لاستحالة ضد الكلام من الخرس والسكوت عليه، قال الله ﷻ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال ﷻ: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، فأثبت لنفسه الكلام بهذه الآيات، وإذا ثبت أنَّه متكلم فكلامُه قديمٌ أزليٌّ، والقرآن ليس

(١) القدرية: فرقة كلامية ضالة، ظهرت بداية عهد سيدنا عمر بن عبد العزيز، أول من أسسها غيلان القدري، يرون أن الأحداث بمشيئة البشر لا بمشيئة الله، ويقولون: لا قَدَرَ والأمرُ أُنُف أي مستأنف فينفون علم الله السابق.

بمخلوق ويدل عليه أيضا قوله ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففصل بين الخلق والأمر بالواو، والأمر كلامه؛ فلو كان مخلوقا لقال: ألا له الخلق والخلق، ويكون تكرارًا من الكلام وعيًا، فلمَّا فصل بينهما بالواو دل على أنَّ الخلق مخلوق، والأمر كلامه قديم أزليٌّ، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، فإن قيل: ﴿كن﴾ كاف ونون، ودليل الحدوث فيها بَيِّن؛ لكونها أحرفًا، فإنَّ الأحرف لا تخرج إلَّا من مخارج فالميم مخرجها من الشفتين وانطباقُ عضوٍ على عضوٍ، والحاء مخرجها من الحلق وكذلك سائر الحروف، فإذا كان الحروف لا تخرج إلَّا من المخارج ويتقدم بعضها على بعض فإنَّه في حال ما يتكلم بالكاف والنون معدومة، وفي حال ما توجد النون ويتكلم بها الكاف معدومة، وما هذه صفته لا يكن إلَّا مخلوقًا؛ ولأنَّ هذه الكاف والنون نشاهدهما في مصاحفنا أجسامًا مخلوقة - فتارةً يكون الحبر باللازورد، وتارةً يُنقش بالجصِّ والآجر على المساجد وغيرها - فإذا قلنا بقدمها ونحن لا نشاهد إلَّا هذه الأجسام الألوان المخلوقة، فقد قلنا بقدم العالم؛ ولأنَّ القديم

لا يحل في المحدث لأنَّ القول بهذا يؤدي إلى القول بما يعتقدونه النصارى؛ - لأنَّهم يقولون إنَّ كلمة الله القديم حلَّت في عيسى فصار عيسى قديمًا أزليًا -، بل الكاف والنون قديمةٌ يقول بقدم أكثر المخلوقات وإذا ثبت أنَّ هذا الكاف والنون وجميع الحروف مخلوقة؛ لمشاهدتنا لها في دار الدنيا، لأنَّها لو كانت قديمة لمَا فارقت الموصوف؛ لأنَّ الصفة لا تفارق الموصوف؛ لأنَّها إذا فارقته يكون موصوفًا بضدها بطل ما ادعيتموه [٢٩/ب] من القدم، يقال: إنَّما يصح التعلق بها مع المشبهة الحلوليَّة القائلين بقدم هذه الأحرف والأصوات؛ لأنَّهم يقولون بأنَّ كلام الله أحرف وأصوات ثم يوافقوننا في التسمية، ويقولون بقدم القرآن، والمعول على الاعتقاد بالقلب لا على التسميَّة باللسان، ويحملهم على ذلك الجهل بالفرق بين القديم والمحدث، ثم يقوون جهلهم بالبهت على الخطأ، وقد قيل: لا شيء أقبح من الخطأ، وأقبح من الخطأ البهت على الخطأ، قال بعض الأدباء: أهتك الناس من إذا لزمه الحق ثقل عليه، وإذا سخ له الباطل أسرع إليه، والأولى بمَن تكلم من أهل الحق بذلك ألَّا يطالبهم في الابتداء إلَّا بالفرق بين القديم والمحدث،

فمن كان جاهلًا بذلك فالسكوت عنه أَولى من كلامه ويؤمر بمعرفة ذلك؛ فإنَّ أصل هذه المسألة مبني على ذلك وأمَّا نحن فلا نقول بأنَّ كلام الله أحرف وأصوات؛ لأنَّ الأحرف والأصوات لغتان وصفتان ومنسوبة إلينا نقرأ بها كلام الله تعالى ونفهمه بها، فالكاف والنون وجميع الحروف القراءة والمقروء بها كلام الله أفهمنا بها كلام الله القديم الأزليِّ كما أفهم موسى بالعبرانيَّة، وعيسى بالسريانيَّة، وداود باليونانيَّة، ولا يقال إنَّ كلام الله من لغات مختلفة لأن اللغات صفة المخلوقين بل المفهوم من هذه اللغات كلام الله القديم الأزلي، كما أنَّ العرب يسمونه الله، وغيرهم من العجم والترك خداي وتنكري، ولا يقال إنَّ الاختلاف عائد إلى الرب؛ لأنَّه واحد لا يختلف، كذلك كلامه أيضًا، بل الاختلاف عائد إلى أفهامنا ولغاتنا، فإن قيل: إذا قلتم إنَّ كلام الله ليس بصوتٍ ولا حرفٍ، وليس تدرك أسماعنا إلَّا ما هذه صفته، فموسى كيف سمع وكيف يسمع؟ يقال: سماعنا لكلامه كعلمنا به، فكما أنَّا لا نعلم موجودًا إلا جسمًا أو جوهرًا أو عرضًا، ثم إنَّ الرب ﷻ معلوم لنا بخلاف في ذلك، فكذلك أيضًا سماعنا لكلامه بخلاف سماعنا لكلام

المخلوقين، فنقيس سماعنا لكلامه على العلم به، فإنْ قيل: أنتم تثبتون شيئين مختلفين قراءةً ومقروءًا، أحدهما قديم والآخر محدث [٣٠/أ] ونحن لا نعقل إلَّا شيئًا واحدًا وفي هذا شبهة للقدريَّة والمشبِّهة(١)، فالقدريَّة يقولون: نحن لا نعقل إلَّا هذه القراءة وهي محدثة، والمشبهة يقولون: لا نعقل إلَّا هذه القراءة وهي القرآن، ثم يثبتون قدمها، يقال لهم: لا يمتنع أن يكون الإنسان في حال السمع يسمع الشيئين المختلفين شيئًا واحدًا، ثم بالدليل يفرق بينهما كالنَّاظر إلى السواد والأسود، فإنَّه حالة المشاهدة لا يشاهد إلَّا شيئًا واحدًا، ثم بالدليل يفرِّق بينهما فيعلم أنَّ السواد عرض لا يقوم بنفسه والأسود الموصوف بذلك السَّواد جسم بخلافه، فكذلك في مسألتنا أيضًا ونحن قد ثبت عندنا أنَّ كلام الله تعالى قديم أزليٌّ بالأدلة التي قد ذكرنا بعضها، وكما أنَّ الذكر غير المذكور والعلم غير المعلوم، فإنَّ أحدنا إذا ذكر الله تعالى لا يقال: إنَّ ذكره قديم لِقدم المذكور،

(١) المشَبِّهة: مصطلح يطلق على من يقولون بأن الله يشبه شيئاً من المخلوقات أو يجسمونه تعالى الله علواً كبيراً، فمنهم الكرامية والسبأية والوهابية. ويقال لهم كذلك الحشوية.

ولا علمه قديم لقدم المعلوم، بل هما شيئان مختلفان فالذكر مخلوق؛ لأنَّه صفة للمخلوق، لم يوجد قبله، وعلمه أيضًا بالله ﷻ كذلك فإنَّ الصفة لا تتقدم على الموصوف فكذلك أيضًا قراءتنا وكتابتنا مخلوقة لأنَّها صفتنا لم تتقدم علينا، فمن زعم من المشبهة الحلوليَّة أنَّ الكتابة قديمة موجودة قبل الكاتب والقراءة قديمةٌ موجودةٌ قبل القارئ يقال: فعلام يستحق القارئ العقوبة إذا كان جنبًا وينال الثواب إذا كان طاهرًا؟ وهو لم يأتِ بشيءٍ؟! فدلَّ على أنَّ الذي يأتي به ويستحق عليه ما ذكرناه هو القراءة المأمور بها عند الطهارة، قال الله ﷻ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزّمل: ٢٠]، والمنهي عنه عند النجاسة لما روى ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ النبي قال: «**لا يقرأ الجنب ولا الحائض شيئًا من القرآن**(١)»، والقديم لا يكون تارةً طاعة وتارة معصية؛ لأنَّ الطاعة والمعصية هي كذا ما يكون للمخلوق على فعلها قدرة والصفات القديمة الذاتية لا توصف بأنَّها مقدورة لله ﷻ فأولى وأحرى ألَّا تكون [٣٠/ب] مقدورة للمخلوق وقد حكي أنَّ

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه والترمذي في سننهم.

عثمان بن عفان رضي الله عنه أحرق جميع المصاحف المخالفة لمصحفه، أترى أنَّه أحرق القرآن؟ ومن الدليل على أَنَّ كلام الله قديمٌ أزليٌّ ما روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حين أنكر عليه الخوارج التحكيم فقال: والله ما حكمت مخلوقًا وإنَّما حكمت القرآن، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥]، وقال عز وجل: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، فإذا كان في شقاق يقع بين الزوجين أمرنا بالتحكيم، وفي أرنب قيمتُه نصف درهم يقتله المحرم أُمر بذلك، ففي شقاقٍ يقع بين طائفتين من المسلمين التحكيم أَولى وأحرى، وجميع الصحابة يسمعون قولَه ولم ينكِر عليه منكِر، وسكتوا عنه كسكوتهم عن حرق عثمان المصاحف؛ ففعل عثمان حجَّة لنا بأنَّ الكتابة مخلوقة، وقول عليٍّ كرم الله تعالى وجهه حجة لنا بأنَّ المكتوب قديم، والاقتداء بعليٍّ وعثمان رضي الله عنهما أولى وأحرى من الاقتداء بالقدريَّة والمشبهة.

١٤- ثم يعتقدون أَنَّ الله تعالى حيٌّ بحياة قديمة أزليَّة؛ لأنَّ الصفات التي ذكرناها لا تقوم إلَّا بمن هو حيٌّ، قال الله عز وجل:

﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥]، وقال الله ﷻ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

١٥- ثم يعتقدون أنَّ صفاته وذاته لا يجوز أن يقال: هي هو، ولا هو هي، ولا هو غيرها، ولا هي غيره؛ لأنَّها لو كانت هي هو لكانت الصفة الواحدة موصوفةٌ بجميع الصفات التي ذكرناها، والصفة لا تقوم بالصفة ولا كان هو هي لم يكن موصوفًا بها؛ لأنَّ الصفة معنى زائد على الموصوف، ولو كانت غيره أو هو غيرها لجاز لأحدهما أن يفارق الآخر؛ لأنَّ حقيقة الغيرين ما يجوز لأحدهما أن يفارق الآخر بل يقال: إنَّها صفاتٌ قائمةٌ بذاته لم يزل موصوفًا بها ولا يزال.

١٦- ثم يعتقدون أنَّ الله ﷻ مستوٍ على العرش، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أقول: وقد سبق الكلام [٣١/أ] على هذا، ولا بدَّ هنا من التكلم على ما فيه الفائدة بهذا الشأن: اعلم أنَّ استواءه تعالى ليس باستقرار، ولا ملاصقة؛ لأنَّ الاستقرار والملاصقة صفة الأجسام المخلوقة، والربُّ ﷻ قديمٌ أزليٌّ أبدًا كان، وأبدًا يكون، لا يجوز عليه التغيير ولا

التبديل، ولا الانتقال ولا التحويل، والعرشُ مخلوقٌ لم يكن فكان، قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٦﴾ [النَّمل: ٢٦]، فلو أنَّ المراد بالاستواء: الاستقرار والملاصقة لأدى إلى تغيير الرب، وانتقاله من حالٍ إلى حال، وهذا محال في حق القديم؛ فإنَّ كل متغير لا بد له من مغيِّر، ولأنَّ العرش مخلوق محدود، فلو كان الرب ﷻ مستقرًا عليه لكان لا يخلو إمَّا أن يكون أكبر منه، أو أصغر منه، أو مثله.

فإن كان أكبر منه: يكون متبعضًا بعضه على العرش، وبعضه خالٍ من العرش، والتبعيض صفة الأجسام المؤلفة.

وإن كان أصغر منه: فيكون العرش مع كونه مخلوقًا أكبر منه، وذلك نقص.

وإن كان مثله: فيكون محدودًا كالعرش، فإن كان العرش مربعًا يكون الرب مربعًا، وإن كان العرش مخمسًا يكون الرب مخمسًا، وما هو محدود وله شبه ومثل لا يكون قديمًا، فدل على أنَّه كان ولا مكان، ثم خلق المكان وهو على ما عليه كان، فإن قيل: إذا قلتم: إنَّه ليس على العرش ولا في السماوات، ولا في جهة من الجهات فأين هو؟ يقال: أين؟

استخبار عن المكان، والرب ﷻ منزه عن ذلك، ويقال للمخالفين: هل تثبتون خلق العرش والسماوات وجميع الجهات أم لا؟ فإن وافقوا أهل الحق وقالوا بخلق جميع الجهات، يقال لهم: فهل كان الرب موجودًا قبل وجودها؟ وهو الذي أوجدها من العدم إلى الوجود؟ فإن وافقوا أهل الحق بالقول بوجوده قبل وجود جميع المخلوقات من العالم العلويِّ والسفليِّ قيل لهم: فأخبرونا عمَّا كان عليه قبل وجوده، فكل دليل لهم قبل وجودها دليل لنا بعد وجودها، فإنَّ الرب ﷻ بعد جميع المخلوقات على ما كانت عليه قبل وجودها، لا يجوز [٣١/ب] عليه التغيير من حالٍ إلى حالٍ، ولا الانتقال من مكان إلى مكان، قال الله ﷻ في قصة إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، أي انتقل من جهةٍ إلى جهة، وتغيَّر من حالٍ إلى حال، ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، أي لا أحب المنتقلين: أي المتغيِّرين، فمن وصف القديم بما نفاه عنه إبراهيم فليس من المسلمين، فإن قيل: إذا لم يكن في جهة، فما فائدة رفع الأيدي إلى السماء في الدعاء؟ وعروج النبي عليه الصلاة والسلام إلى السماء؟ يقال

لهم: لو جاز لقائل أنْ يقول أنَّ الربَّ ﷻ في جهة فوق لأجل رفع الأيدي إلى السماء في الدعاء لكان لغيره أن يقول: هو في جهة القبلة لأجل استقبالنا لها في الصلاة، أو هو في الأرض لأجل قربنا من الأرض في حال السجود، وقد روي في الخبر عن النبي أنَّه قال: «**أقرب ما يكون العبد من الله تعالى إذا سجد**[1]»، قال الله ﷻ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ١٩]، فلو كان في جهة فوق لمَا وصف العبد بالقرب منه إذا سجد، فكما أنَّ الكعبة قبلة للمصلي يستقبلها في الصلاة، ولا يقال أنَّ الله تعالى في جهة الكعبة، ويستقبل الأرض بوجهه بالسجود، ولا يقال أَنَّ الله تعالى في الأرض، فكذلك جعلت السماء قِبلة للدعاء لا لأنَّ الله تعالى حال فيها، وكذلك أيضًا عروج النبي إلى السماء، لا يدل على أنَّ الله تعالى في السماء، كما أنَّ عروج موسى إلى الجبل وسماعه لكلام الله عنده، لا يدل على أنَّ الله ﷻ حالٌّ في الجبل، فعروج النبي إلى السماء إنَّما كان زيادة في درجته وعلو منزلته؛ ليتبين الفرق بينه وبين غير

(١) سبق تخريجه.

في المنزلة وعلو الدرجة، فإن قيل: نحن نحمل هذه الآية وما أشبهها من الآيات كاليدين والوجه، ومن الأخبار المروية عن النبي ﷺ من النزول والصورة والقدم على الظاهر، ولا نتأوله، قال الله ﷻ: [٣٢/أ] ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: ٧]، فنؤمن بها ولا نتأولها، يقال لهم: هذه الآية دليل على القول بالتأويل، والدليل عليه قوله ﷻ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٧]، والإيمان هو التصديق، والتصديق بالشيءِ لا يصح مع الجهل به، فدل على أنَّ قوله ﷻ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٧] أي يعلمون، و﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا﴾ [آل عِمرَان: ٧] فيعلمونه مُضمر، كقوله ﷻ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرّعد: ٢٣-٢٤]، أي يقولون: سلام عليكم، وإذا كانت الآيات والأخبار التي تقتضي العمل يتأول لها ولا تحمل على الظاهر كقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النّساء: ٩٣]، فظاهر الآية يقتضي أنَّ أهل الكبائر يخلدون في النار ويؤدي ذلك إلى القول بمذهب القدريَّة، فلا بد من تأويل هذه الآية، فيكون المراد بقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾ [النّساء: ٩٣] متعمدًا لقتله،

مستحلًا له، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «**بين الإسلام وبين الكفر ترك الصلاة؛ فمن تركها فقد كفر**[1]»، يتأول له على مذهب أكثر الأئمة، ولا يحمل على الظاهر فالآيات والأخبار التي ظاهرها التشبيه، ولا تقتضي العمل بل تقتضي العلم أولى وأحرى أن تتأول؛ لأنَّه إذا قلنا: قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] لا يقتضي العمل ولا له التأويل، وظاهره يقتضي حدوث الرب والتشبيه بالخلق، فما فائدة إعلامنا به؟ وغرضهم من نفي التأويل، بقاؤهم على التشبيه، فإن لم يقولوا بالتأويل ونفوا التشبيه لم يطالبوا بغيره ولم يجب عليهم أكثر من ذلك؛ لأنَّ الذي يحوجنا ويدعونا إلى التأويل قول المخالف: لا أدري ولا أتأول أنا أحمل هذا الاستواء على الظاهر، ولا أدري هل هو استقرار أو غير استقرار، وكذلك قوله ﷻ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥] أحملهما على الظاهر ولا أدري هل هما الجارحتان أو غير الجارحتين، وهذا جهل منه بالرب ﷻ، ويؤدي ذلك إلى كفره؛ [٢٣/ب] لأنَّ من جهل صفة من

(١) أخرجه الترمذي في سننه من حديث جابر رضي الله عنه بنحوه.

صفات معلومة لم يعرف المعلوم على ما هو به، وقوله: لا أدري، شك في الله، وقلة علم بما يجوز في حقه، وما لا يجوز؛ لأن حمل هذه الآيات والأخبار التي ظاهرها التشبيه على ظاهرها إنَّما يصح بعد نفي التشبيه وهو أن يعتقد أنَّ هذا الاستواء ليس بجلوس ولا استقرار ولا ملاصقة، هو بعد ذلك هو مخير، إن شاء تأوَّل وإن شاء حمله على الظاهر، وكذلك قوله ﷻ: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ [طه: ٩٢]، وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: ٧١]، يعتقدون أنَّ هذه اليد ليست بجارحة، لا تلمِس ولا تُلَمَس، فإن قيل: إذا قلتم أَنَّ هذه اليد ليست بجارحة و لا تلمِس ولا تُلَمَس فما هي؟ يقال لهم: قد اختلف الناس في ذلك، فمنهم من قال: إنَّ اليد هنا يد قدرة، والمراد بالتثنية: الواحد، كقول الشاعر: خليليَّ، وصاحبيَّ، والدليل عليه أَنَّ جميع الموجودات والمخلوقات بقدرته، وخص آدم بالذكر، وكما أنَّ المساجد كلها لله تعالى وخصَّ الكعبة بالذكر، والنوق كلها لله تعالى وخصَّ ناقة صالح بالذكر، فكذلك أيضًا ها هنا خلق آدم وجميع المخلوقات بيد، وخص آدم بالذكر؛ تشريفًا وتخصيصًا، ومنهم من قال: إنَّ اليد

ها هنا صفة زائدة على القدرة، خص بها آدم وخلقه بها، واحتج على التأويل بهذا، وقيل: لو أنَّ المراد باليد هاهنا صفة زائدة على القدرة لأدَّى إلى أنْ يكون للربِّ صفات كثيرة لا يعلمها وهذا يؤدي إلى الجهل بالربِّ والواجب من ذلك نفي التشبيه والاعتقاد بأنَّ هذه اليد ليست بجارحة ولا تلمس ولا تُلمس وكذلك جميع الأخبار التي ظاهرها يقتضي التشبيه كقوله: «**إن قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن**[1]» وقوله: «**رأيت ربي في أحسن صورة**[2]» الواجب في ذلك الاعتقاد بأنَّ الهاء في قوله: خلق آدم على صورته عائدة إلى آدم أو إلى المضروب لا إلى الرب ﷻ لأنَّ الرب ليس بصورةٍ لأن الصورة لا بد لها من المصوِّر والرب [٣٣/أ] منزَّه عن ذلك، والعاقل على الحقيقة من يتوصل بعقله عند نظره واستدلاله إلى الحقِّ كأبينا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام استدل على خلق الكواكب والشمس والقمر والأفول والانتقال من حالٍ إلى حالٍ وأمرنا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه وابن ماجه والترمذي في سننهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما بنحوه.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

الربُّ عز وجل باتباعه لإصابته الحق لا من يعتقد ويصف الربَّ بالنزول والانتقال والتغير من حالٍ إلى حالٍ، ويمر هذه الأخبار على ظاهرها من غير تأويلٍ ولا نفيٍ تشبيهٍ لجهله وحماقته وقلَّة علمه وبصيرته، حمانا الله والمسلمين من ذلك فإنَّ ذلك من الصدمات الدافعة إلى النار، حسبنا الله ونعم الوكيل.

٩. (فريدة في حقيقة الإيمان):

الإيمان في اللغة: التصديق مطلقًا كما قال الله تعالى حكاية عن إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يُوسُف: ١٧] أي وبمصدِّق لنا، وأمَّا في عُرف الشَّرع فاختلفت آراء العلماء فيه، فقال جمهور الأشاعرة - وهم أتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري والقاضي أبو بكر الباقلانيِّ والأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني -، وقليل من المعتزلة - كابن الراونديِّ والصلاحيّ -: هو التصديق للرسول فيما علم مجيئه به تفصيلًا فيما علم تفصيلًا وإجمالًا فيما علم إجمالًا، وقال جهم بن صفوان الترمذيِّ(١): هو المعرفة بالله، وقال بعض الفقهاء: التصديق بالله وبما جاء به الرسول إجمالًا، وقال الكراميَّة: هو الإقرار باللسان أي النطق

---

(١) جُهم بن صفوان: (٧٨-١٢٨هـ)، مؤسس الفرقة الجهمية، أبو محرز، جهم بن صفوان الترمذي، ولد بالكوفة، من المعطلة، خالف المعتزلة ببعض المسائل، قال بالجبر، ومن القائلين بأن الإيمان عقد بالقلب دون التلفظ باللسان.

بكلمتيِّ الشهادة، وقال طائفة: هو التصديق بالقلب مع الإقرار باللسان، ويروى هذا عن أبي حنيفة رضي الله عنه، وقال أكثر المعتزلة: هو العمل الصالح، وقال بعض السلف وجميع المحدثين: أنَّه مجموع التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان، وذهب إليه الشافعي رضي الله عنه، ولكلٍّ واحد من هؤلاء حجة أقاموها على ما قالوه مذكورة في مواضعها، قيل: هذا النزاع إنَّما هو في الإيمان الذي يترتب عليه الثواب في الآخرة، لا الإيمان الذي تجري عليه أحكام الدنيا ويوجب عصمة الدماء والأموال؛ إذ هو [٣٣/ب] مجرد الإقرار باللسان كما قال النبي: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلَّا الله، فإذا قالوها عصموا منِّي دماءهم وأموالهم**»[(١)]، ولا شك أنَّ الإيمان يوجب دخول الجنة والنجاة من النار، إمَّا ابتداء كإيمان لا يخالط بالعصيان، وإمَّا عاقبة كإيمان العاصي، لا يقال: ذهب المعتزلة إلى أنَّ مرتكب الكبيرة يخلد في النار مع أنَّه مؤمن، لأنَّا نقول: مرتكب الكبيرة ليس بمؤمنٍ عندهم، كما أنَّه ليس بكافر لقولهم بالمنزلة بين

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود.

المنزلتين، ولا شك أنَّ من يصرف عمره في الأعمال الصالحة والنطق بكلمتي الشهادة، ولا يكون بقلبه مصدقًا لوحدانيَّة الله تعالى، ثم يموت على هذا، لا يدخل الجنة أبدًا ومن يؤمن بكلِّ ما جاء به النبي ﷺ بقلبه فيموت في ساعته، قبل أن ينطق بالشهادتين، وأن يعمل بعمل أهل الإيمان يدخل الجنة، فعلم أنَّ الإيمان الموجِب لدخول الجنة هو مجرد التصديق القلبيِّ، ولا ينازع فيه من له دربة في معرفة الشرع، فضلًا عن طائفةٍ كثيرةٍ يدَّعون العلم والاجتهاد كالكرامية والمعتزلة، بل النزاع في أنَّ الإيمان الذي يترتب عليه أحكام الشرع في الدنيا، أي الذي يقال لصاحبه مؤمن عند الناس، هل هو مجرد التصديق القلبيِّ كما قاله الأشعري، أو الإقرار اللِّساني كما قاله الكراميَّة، أو العمل الأركانيِّ كما قاله المعتزلة، لا يقال: لا سبيل لنا إلى معرفة التصديق القلبيِّ، إذ هو مخفيٌّ علينا، وإنَّما يظهر بالإقرار اللسانيِّ أو العمل الأركانيِّ؛ لأنَّا نقول: لا ينحصر الدال على التصديق القلبيِّ في الإقرار اللسانيِّ والعمل الأركانيِّ، بل ربما توجد عنده قرينة دالة عليه من غير النطق والعمل، كما حكم النبي عليه الصلاة والسلام بإيمان الجارية الخرساء حين سألها:

بأين الله؟ فأشارت نحو السماء، فعلم النبي ﷺ بأنَّها ليست وثنية، فالنبي ﷺ ما سمع منها الإقرار، وما رأى فيها الأعمال، فها هنا ثلاثة أشياء: تصديقٌ بالجنان، وإقرارٌ باللِّسان، [٣٤/أ] وعملٌ بالأركان، وكلٌّ واحد منها يوجد بدون الآخَرين، وثلاث طوائف: الأشعري ومن تبعه، والكراميَّة، والمعتزلة.

وذهب الأشعريُّ: إلى أنَّ مجرَّد التصديق الجناني هو الإيمان الذي يترتب عليه أحكام الشرع في الدنيا، وأمَّا الآخران فهما يدلَّان عليه في الأغلب والأكثر، ما لم يدل على ضده دالٌّ آخر، كما في قصَّة المنافقين: فإنَّهم يدَّعون التصديق القلبيَّ بالإقرار اللسانيِّ والعمل الأركانيِّ، لكنْ يدلُّ على كذبهم أشياء أخر كالوحي، أو الإلهام، أو لارتكابهم لما يوجب الكفر.

والكرَّاميَّة(١): إلى أنَّه الإقرار اللسانيُّ، والمعتزلة: إلى أنَّه العمل الأركاني، ولكلٍّ واحد منهما دلائل، والحق مع الأشعري إذ رأى أنَّ الإيمان الذي يوجب كون صاحبه مؤمنًا عند

---

(١) الكرّاميّة: فرقة كلامية تنسب إلى محمد بن كرام السجستاني ظهرت في النصف الأول من القرن الثالث الهجري أشهر بدعها أن الإيمان هو القول باللسان دون القلب بالإضافة إلى التشبيه والتجسيم.

الله هو التصديق القلبيُّ، وهذا ما يظهر للخلق في الدنيا إلَّا بما يدل عليه، إمَّا بالنطق: كالشهادتين، أو بالعمل: كالصلاة، أو بشيءٍ آخر يدل على وجود ذلك التصديق، فإذا ظهر للخلق، صار مؤمنًا عند الخلق أيضًا، فيترتب عليه أحكام الشريعة في الدنيا، وإن لم ينطق بالشهادتين ولم يعمل بالعمل الصالح، فعلم أنَّ الإيمان أصله هو التصديق القلبيُّ، والإقرار اللسانيُّ والعمل الأركانيُّ هما يوجبان كمال الإيمان يدلان على أصله في الأغلب، مثلًا إذا علمنا أنَّ التصديق الجناني متحقق في شخص، ولم يتحقق معه الإقرار، ورأينا الأعمال، وعلمنا أنَّه ليس بمصدق بالقلب فلا نحكم بإيمانه فظهر أنَّ التصديق بالجنان هو أصل الإيمان، لكن لمَّا رأى أبو حنيفة أنَّ الإقرار هو الدال عليه في الأغلب والأكثر ذهب إلى أنَّ الإيمان الذي يترتب عليه أحكام الشرع في الدنيا هو مجموع التصديق الجناني والإقرار اللساني، والشافعي رضي الله عنه لمَّا رأى أنَّ لفظ الإيمان يطلق تارة ويراد به: أصل الإيمان، أي التصديق القلبيُّ، ويطلق أخرى ويراد به: الإيمان الكامل الذي لا يختلط معه عصيان كما وقع [٣٤/ب] في قوله عليه السلام: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ**

لأخيه ما يحب لنفسه[1]»، فحمل معنى الإيمان على الإيمان الكامل، وذهب إلى أنَّه مجموع التصديق القلبيِّ والإقرار اللسانيِّ والعمل الأركانيِّ، فأصل الإيمان هو سبب أهل الجنة، وكماله سبب رفع الدرجة فيها، فكلما كان الأذكار والأعمال أكثر كانت الدرجة في الجنة أعلى وأرفع، والله ولي المتقين.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما، والترمذي وبن ماجه في سننهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

١٠. (فريدة في أنَّ الإيمان هل يزيد أو ينقص أو لا؟):

ذهب طائفة إلى أنَّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص، كأبي حنيفة رضي الله عنه، وطائفة أخرى إلى أنَّه يزيد وينقص، كالشافعي رضي الله عنه، وقال الإمام الرازي[١] رضي الله عنه: هذا النزاع لفظيٌّ؛ لأنَّه موقوف على تفسير الإيمان، فإن فسر بأنَّه التصديق القلبي فإنَّه لا يزيد ولا ينقص؛ لأنَّ التصديق هو اليقين، واليقين لا يقبل التفاوت، لاحتمال النقيض، وإن فسر بأنَّه التصديق مع الإقرار والعمل فيزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصانها، وقال صاحب

(١) الفخر الرازي (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ = ١١٥٠ - ١٢١٠م) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي، الإمام المفسر، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، وهو قرشي النسب،أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له: ابن خطيب الري رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة،أهم تصانيفه: مفاتيح الغيب ثماني مجلدات في تفسير القران الكريم وكان واعظًا بارعًا.

المواقف[1]: والحق أنَّ التصديق يقبل الزيادة والنقصان؛ لأنَّه من الكيفيَّات النفسيَّة القابلة للتفاوت في القوة والضعف، أقول: فيه نظر؛ لأنَّ من قال: أنَّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص لا يريد أنَّه لا يقبل التفاوت في القوة والضعف، بل يريد أنَّ التصديق القلبيَّ الذي يصير به الإنسان مؤمنًا، إنَّما هو بقدر، لا يزيد ولا ينقص، وتوضيحه: أنَّ التصديق يقبل التفاوت بحسب الشدة والضعف، لكن يصير الإنسان، بمجرد أصل التصديق متصفًا بالإيمان من غير اتصافه وصفه بالشدة والضعف، مثلًا إذا حصَّل الشخص أدنى درجة من الإيمان، بحيث لا يمكن أدنى منه، يصير بذلك القدر متصفًا بالإيمان شرعًا، مع أنَّه بأضعف إيمان؛ لحصول أصل الإيمان له، وأمَّا شدته وضعفه فلا دخل له في هذا الاتصاف، فلا شك أنَّ مجرد التصديق مع قطع النظر عن

---

(١) عضد الدين الإيجي (٠- ٧٥٦ هـ = ٠٠- ١٣٥٥م) عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عضد الدين الإيجي: عالم بالأصول والمعاني والعربية، من أهل إيج بفارس ولي القضاء، وأنجب تلاميذ عظامًا. وجرت له محنة مع صاحب كرمان، فحبسه بالقلعة، فمات مسجونًا. من تصانيفه: المواقف في علم الكلام.

شدته وضعفه، لا يقبل الشدة والضعف، وإنَّما القابل لهما التصديق المطلق، والمراد ها هنا: التصديق المجرد، فالآيات [٣٥/أ] الدَّالة في الكتاب على أنَّه يزيد وينقص تُحمل على الإيمان المطلق، كقوله تعالى: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، ومن قال إنَّه لا يزيد ولا ينقص أراد به أصل الإيمان أي التصديق المجرد فالشافعي رضي الله عنه لما قال إنه يزيد وينقص أراد به مطلق الإيمان الشامل بضعفه وقوته، ناقصه وكامله، سواء كان التفاوت في أصل التصديق بالشدة والضعف، أو في أجزاء أُخر، كالأعمال بالجوارح؛ إذ عنده الإيمان عبارة عن مجموع الأمور الثلاثة، وأبو حنيفة رضي الله عنه لمَّا قال: أنَّه لا يزيد ولا ينقص أراد أنَّ أصل الإيمان هو مجرد ما يصير به المؤمن مؤمنًا لا يزيد ولا ينقص، فبهذا ينبغي رفع النزاع بين المذهبين.

١١. (فريدة في معنى الكفر عند كل طائفة):

قال صاحب المواقف: الكفر عند كل طائفة مقابل لمَا فسر به الإيمان، أقول: فيه نظر؛ لأنَّ هذا إنَّما هو عند الأشعري، لأنَّ الإيمان عنده تصديق النبي بالقلب، والكفر هو عدم هذا التصديق، فبين الإيمان والكفر تقابل بالعدم والملكة، أمَّا من قال: إنَّ الإيمان مجموع التصديق والإقرار، ومجموع الثلاثة على اختلاف الأقوال لا يقول: الكفر هو عدم هذا المجموع؛ إذ عدم المجموع يصدق على مجرد التصديق القلبي بدون الإقرار والعمل، والقائل بذلك لا يقول: إنَّ من صدق بكل ما جاء به النبي، ولم يقر بالشهادتين، ولم يعمل بعمل أهل الإيمان كافر بل الكافر عنده أيضًا عدم التصديق وعدم التصديق لا يقابل الإيمان على ما فسره إذ المقابل له عدم مجموع التصديق والإقرار والعمل، وأمَّا المعتزلة القائلين بأنَّ الإيمان هو مجموع الأعمال الصالحة لا يقولون أنَّ عدم المجموع الصادق على ترك بعض هو الكفر؛ لأنَّ من ترك فريضة من فرائض الأعمال

ارتكب كبيرة ومرتكب الكبيرة عندهم ليس بكافر؛ لأنَّه عمل بسائر أعماله الصالحة وليس بمؤمن إذ لا يكون جميع أعماله صالحًا فالكفر عندهم عدم جميع الأعمال [٣٥/ب] لا عدم مجموعها والضابط في تفصيل الكفار أنَّ الإنسان إمَّا مصدِّق بنبوة محمد ﷺ أو غير مصدق، وغير المصدق بنبوته إمَّا مصدق بنبوة نبي من الأنبياء وهم اليهود والنصارى والمجوس أو غير مصدق بنبوة أصلًا، وهو إمَّا مصدق بوجود القادر المختار وهم البراهمة(١) أو لا وهم الدهريَّة(٢)، على اختلاف أصناف كلٍّ منهم، ثم إنكارهم لنبوته عليه السلام إمَّا عن عناد وعذابه مخلد إجماعًا، وإمَّا عن اجتهاد بلا تقصير فالجاحظ(٣)

---

(١) البراهمة: هم طبقة الكهنوت عند الهندوس.

(٢) الدهرية: فرقة من الملاحدة تعتبر أن المادة لا فناء لها، وأن الزمان أو الدهر قديم غير مخلوق ولا نهائي.

(٣) الجاحظ: (١٦٣ - ٢٥٥ هـ = ٧٨٠ - ٨٦٩م)، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ: كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته في البصرة، فلج في آخر عمره، وكان مشوه الخلقة، ومات والكتاب على صدره، قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه، له تصانيف كثيرة.

والعنبريُّ[1] على أنَّه معذور وعذابه غير مخلد وهذا خلاف الإجماع، ثم المصدق بنبوته إمَّا مخطئ في أصل من المسائل الاعتقادية المتعلقة بأصول الدين وأنَّه ليس بكافر أو لا يكون مخطئًا، وهو إمَّا أن يكون اعتقاده عن حجة وبرهان وهو ناجٍ بالاتفاق، أو عن تقليد وقد اختلف فيه، فمن قال إنَّه ناجٍ بهذا الاعتقاد التقليديِّ؛ فلأنَّ النبي حكم بإيمان من لم يعمل منه ذلك، وهم الأكثرون، ومن قال إنَّه غير ناج فِلأنَّ التصديق بالنبوة يتضمن العلم بدلالة المعجزة والعلم بذلك يتضمن العلم بما يجب اعتقاده في ذات الله وصفاته وأفعاله، فمن كان مصدقًا حقيقة كان عالمًا بهذه الأمور كلها وأدلتها إجمالًا، وإن لم يكن له تنقيح الأدلة وتحريرها تفصيلًا، فإنَّ ذلك ليس شرطًا في العلم، فمن لم يكن عالمًا بأدلتها مفصَّلة ولا مجملة،

(١) العنبري (١١٩ - ١٩٦ هـ = ٧٣٧ - ٨١٢م) معاذ بن معاذ بن نصر بن حسان العنبري التميمي، أبو المثنى: قاض بصري، من الأثبات في الحديث، قال ابن حنبل: ما رأيت أعقل من معاذ، كأنه صخرة! وولي قضاء البصرة للرشيد سنة ١٧٢ هـ ولم يوفق، فشكاه أهلها إلى الرشيد، فصرفه فأظهروا السرور ونحروا الجزور وتصدقوا بلحمها، واستتر في بيته، خوف الوثوب عليه، ثم أشخص إلى الرشيد، فاعتذر، وقبل الرشيد عذره وأعطاه ألف دينار، توفى بالبصرة.

وكان مقلدًا لم يكن مصدقًا حقيقة، فلا يكون ناجيًا، ولعل الأكثرين الذين حكم النبي بإيمانهم ونجاتهم كانوا عالمين بهذه الأمور علمًا إجماليًا، لا مقلدين تقليدًا محضًا.

١٢. (فريدة في تقسيم الإيمان):

ورد في الخبر الصحيح أنَّ النبي قال: «**الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**[(١)]».

- أمَّا الإيمان بالله تعالى: فقد سبق الكلام عليه مفصلًا.

- وأمَّا الإيمان بالملائكة [٣٦/أ] فهو: أنْ يؤمن بأنَّ لله تعالى عمالًا في ملكه مخلوقين من الأنوار، كماأنَّ الجن مخلوقين من النار، لا يوصفون بالذكورة ولا بالأنوثة، معصومين من المعاصي، لا يفترون في تسبيح الله تعالى وتقديسه، بل أنفاسهم الضرورية تسبيحة لهم، غير موصوفين بالشهوات الإنسانيَّة.

- وأمَّا الإيمان بالكتب: هوأن تؤمن بأنَّ الكتب الإلهيَّة المنزلة إلى الأنبياء كلها كلام الله تعالى، وكلامه صفةٌ حقيقيَّة

---

(١) سبق تخريجه.

قائمة بذاته تعالى، واعلم أنَّ في هذه المسألة افترق المسلمون إلى أربع فرق:

فرقتان: ذهبوا إلى أنَّ كلام الله صفةٌ له، وكل ما هو صفة له فهو قديم؛ فكلام الله تعالى قديم، وهما: الأشاعرة والحنابلة، لكنَّ الأشاعرة قالوا: هذه الصفة القائمة بذاته ليس من جنس الحروف والأصوات، بل هذه الحروف والأصوات كلها عبارات عن هذه الصفة القائمة بذاته، متغيِّرات بتغيُّر الأزمان والأديان، بخلاف المعنى القائم بذات الله تعالى، وهم سَمُّوا الصفة القائمة بذاته كلامًا نفسيًا، وتلك الحروف والأصوات كلامًا لفظيًا، ويطلقوا على كِلا الأمرين لفظ القرآن، والحنابلة قالوا: كلام الله هو هذه الحروف والألفاظ من غير إثبات الكلام النفسيِّ، وهو بهذا المعنى قائم بذات الله تعالى، فهم اعترفوا بكون هذه الحروف والأصوات قديمة، مع ترتب أجزائها في الوجود بالتقدم والتأخر.

وفرقتان: ذهبوا إلى أنَّ كلماته مترتبة متعاقبة في الوجود، وكلُّ ما هو كذلك فهو حادث، وهم الكراميَّة والمعتزلة؛ فالكراميَّة: ذهبوا إلى أنَّ كلامه حروف وأصوات، وهو مع أنَّه

حادث قائم بذاته تعالى، فلزمهم قيام الحوادث بذات الله تعالى - تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا -، والمعتزلة: ذهبوا إلى أنَّ كلامه حروف وأصوات، وهو حادث غير قائم بذاته، بل خلقه الله تعالى أولًا في اللوح المحفوظ، ثم أنزله إلى قلوب الأنبياء.

والحق أنَّ كلام الله تعالى [٣٦/ب] اسم للنظم والمعنى جميعًا، وهو قائم بذات الله تعالى، قديم، وهو مكتوبٌ بالمصاحف، مقروءٌ بالألسن، محفوظٌ في الصدور، وهو غير الكتابة والقراءة، والحفظ الحادثة، وما يقال من أنَّ الألفاظ والحروف مترتبة متعاقبة فجوابه: أنَّ ذلك الترتيب إنَّما هو في تلفظنا بسبب عدم مساعدة الآلة، فالتلفظ حادث دون الألفاظ، والأدلة الدَّالة على الحدوث يجب حملها على حدوث التلفظ لا حدوث اللفظ، وأمَّا النسخ الواقع في كتب الله تعالى: فهو لمصالح يرجع نفعها إلى عباده؛ لأنَّ كل وقت وزمان يقتضي حكمًا مخصوصًا، لا يوجد في غير تلك الزمان، والله تعالى عالمٌ بمصالح العباد، قادرٌ على إظهار ما هو الأصلح في كل وقت وزمان.

وأمَّا الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام: فهو أنْ يصدق

بأنَّ الأنبياء عباد الله تعالى، مبعوثون من الله تعالى إلى الخلق؛ لتبليغ أوامره ونواهيه، معصومون عن الكبائر سهوًا، وعن الصغائر عمدًا حال النبوة. واعلم أنَّ أهل الملل اتفقوا على وجوب عصمتهم عن الكذب عمدًا في دعوى الرسالة وما يبلغونه من الله، وهذا الوجوب عقلي؛ إذ لو جاز هذا لأدى إلى إبطال دلائل المعجزات، وهو مُحال، واختلفوا في جواز صدوره عنهم في ما ذكر على سبيل السهو والنسيان، فمنعه الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني وكثير من الأئمة الأعلام؛ لدلالة المعجزة على صدقهم، فلو جاز ذلك لكان نقضًا لدلالة المعجزة، وهو باطل، وجوَّزه القاضي أبو بكر[1] معتقدًا بأنَّ

(١) القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القسم، المعروف بالباقلاني البصري المتكلم المشهور؛ كان على مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، ومؤيدًا اعتقاده وناصرا طريقته، وسكن بغداد، وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره، وكان في علمه أوحد زمانه وانتهت إليه الرياسة في مذهبه، وكان موصوفا بجوده الاستنباط وسرعة الجواب، وسمع الحديث؛ وكان كثير التطويل في المناظرة مشهورا بذلك عند الجماعة، وتوفي القاضي أبو بكر المذكور آخر يوم السبت، ودفن يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة ببغداد، رحمه الله.

السهو والنسيان لا دلالة لهما في الواقع، فلا يلزم النقض، وأمَّا سائر الذنوب فهي: إمَّا كفر أو غيره من المعاصي، أمَّا الكفر: فأجمعت الأمة على عصمتهم عنه قبل النبوة وبعدها، إلا الخوارج؛ لأنَّهم جوزوا عليه الذنب وكل ذنب عندهم كفر، فلازمهم جواز الكفر في حقهم، وجوَّزوا الشيعة إظهاره تقية عند خوف الهلاك، وذلك باطل؛ لأنَّه يفضي إلى ترك تبليغ الرسالة، إذ أولى الأوقات بذلك [٣٧/أ] وقت الدعوة للضعف وكثرة المخالفين، وأمَّا غير الكفر: فإمَّا كبائر أو صغائر، وكل منهما إمَّا أنْ يصدر عمدًا وإما أن يصدر سهوًا، أمَّا الكبائر عمدًا: فمنعه الجمهور من المحققين والأئمة ولم يخالف فيه إلَّا الحشويَّة، وأمَّا سهوًا: فجوَّزه الجمهور إلَّا الجبائي(١)، وأمَّا سهوًا: فهو جائز اتفاقًا إلا الصغائر الحسيَّة: وهي ما يلحق فاعلها بالأرذال، كسرقة لقمة أو حبة، وهذا كلُّه بعد الوحي، وأمَّا قبله: فقال الجمهور: لا يمتنع صدور كبيرة عنهم؛ إذ لا دلالة للمعجزة عليه، ولا حكم للعقل، وقال أكثر المعتزلة:

(١) الجبائي: محمد بن عبد الوهاب البصري، أبو علي الجبائي (ت:٣٠٣هـ) إمام معتزلي تنسب له الفرقة الجبائية منهم.

يمتنع الكبيرة وإن تاب منها؛ لأنَّه يوجب النفرة عمَّن ارتكبها، وهي مانعة عن اتباعه، فيفوت مصلحة البعثة، ومنهم من منع عمَّا ينفر الطبائع عن متابعتهم، كعُهر الأمهات والفجور في الآباء ودناءتهم، والصغائر الحسيَّة دون غيرها، وقالت الشيعة: لا يجوز عليهم لا صغيرة ولا كبيرة، لا عمدًا ولا سهوًا قبل الوحي فكيف بعد الوحي؟! ولكنَّ المختار عند أهل السنة أنَّهم معصومون عن الكبائر مطلقًا، وعن الصغائر عمداً في زمان نبوتهم، وأمَّا ما نقل في حقِّهم شيء يوهم صدور الذنب عنهم بعد النبوة: إن كان منقولًا بنقل الآحاد وجب ردها؛ لأنَّ نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصي إلى الأنبياء، وما ثبت منها تواترًا: فإنْ كان له محمل آخر حملناه عليه ونصرفه عن ظاهره، وإنْ لم نجد له محيصًا حملناه على أنَّه كان قبل البعثة وكان من قبيل ترك الأولى، أو من صغائر صدرت عنهم سهوًا؛ إذ لا ينافي ذلك تسميته ذنبًا كما في قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفَتْح: ٢]، ولا الاستغفار عنه، ولا الاعتراف بكونه ظلمًا، كما في قصة آدم عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعـرَاف: ١٩]، إذ لعل ذلك كله

لعظمه عندهم، ألَا ترى أنَّ حسنات الأبرار سيئات المقربين؟ وكذا ارتكاب الصغيرة سهوًا ذنبًا، [٣٧/ب] ويستغفرون عنه ويعترفون بكونه ظلمًا، هذا كلُّه بعد البعثة، وكل ما نقل عنهم قبل البعثة أيضًا يحمل على هذه المحامل؛ إذ حمله عليها لا يخالف نقلًا ولا عقلًا، وهو أوْلى من نسبة الذنب إليهم؛ إذ يجب علينا بقدر الإمكان أنْ ننزههم عن الذنوب مطلقًا، ولا نجترئ عليهم بإطلاق اللسان، كيف وهم خواصُّ البشر؟ ولا شك أنَّهم أفضل من خواص الملائكة، وعوامُّها أفضل من عوام البشر؛ لخلوص الملائكة عن مخالفة الحق، أعني بمخالفة النفس بخلاف عوام البشر ولا ريب؛ فنبينا وسيدنا محمد ﷺ نبوته باقية بعد وفاته كبقائها حال حياته إلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها، وإنَّ شريعته ناسخة لجميع الشرائع، وجميع الخلق مخاطبون بها، قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سَبَإ: ٢٨] ومعجزه باقٍ وهو القرآن، قال الله ﷻ: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [هُود: ١٣]، ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٣] ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسرَاء: ٨٨]، وأنَّ معراجه صحيح وكان في اليقظة

لا في المنام، فأُسري به إلى البيت المقدس، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، ومحال أن يقول ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] ولم يسر به، وعرج به إلى السماوات السبع وإلى العرش وعرض عليه جميع المخلوقات، قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: ١٨]، وسمع كلام الله القديم الأزليّ بلا واسطة، كما سمعه موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام بلا واسطة، قال الله ﷻ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١٠]، والفرق بين نبينا وبين موسى عليهما الصلاة والسلام، أنَّ موسى سمع كلام الله تعالى وهو على وجه الأرض من وراء حجاب، ونبينا عليه الصلاة والسلام سمع كلام الله تعالى وهو بالأفق الأعلى لا من وراء حجاب بل مع المشاهدة، قال الله ﷻ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: ١١]، أي: ما كذب الفؤاد ما رآه بعيني أم رأسه، وإنَّ جميع ما أخبر به صدق من قوله [٣٨/أ]: «**أشرفت على الجنة فوجدت أكثرها البله، وأشرفت على النار فوجدت أكثرها النساء**»(١)، وهذا دليل على أنَّ الجنة والنار مخلوقتان،

---

(١) أخرجه ابن شاهين في الإفراد من حديث جابر رضي الله عنه بنحوه.

قـــال الله ﷻ: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عِـــــمـــــرَان: ١٣٣] ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَـرَة: ٢٤]، ومحال أنْ يقول ﴿أُعِدَّتۡ﴾ [آل عِـمرَان: ١٣١] وما أعدت! فمن أنكر ذلك فقد كذب الله ورسوله فيما أخبرا به وذلك كفر، والمعراج والإسراء غير مستحيل في العقل؛ فالإيمان به واجب، والمنكر له مكذِّب لِما أخبر به الرب ﷻ، وكذلك المنكر للشفاعة أيضًا والحوض والصراط والميزان، قال النبي: «**ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»[(١)]، وروي عنه ﷺ أنَّه قال: «**يخرج طائفة من أمتي من النار بشفاعتي وقد صاروا مثل الحممة**[(٢)]»، والأخبار الواردة في

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عن رَسُولِ اللَّهِ قَال: «... **فَيَقُولُ اللَّهُ عزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتْ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنْ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ " نَهَرُ الْحَيَاةِ " فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ... قَالَ: فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمْ الْخَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمْ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُ: رِضَايَ فَلَا**

=

الحوض والميزان والصراط وعذاب القبر مشهورة معروفة، فمن ردَّ خبرًا منها فهو كمن رد كلام الله، قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

= **أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»**.

رواه البخاري (٧٠٠٢) ومسلم - واللفظ له -

١٣. (فريدة): في معرفة سيدنا محمد ﷺ

قال سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه: جمع كل أحكام الفناء في النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧]، أين يرى اللبيب وقتًا يتكلم به؟ أو ينظر إلى شيءٍ؟ أو يشتغل بشيءٍ؟ وحجة الشرع قائمة عليه وهو من شهداء الله على الأمم، والشهيد عليه السيد العظيم عليه صلوات الله وسلامه وتحياته، والمقام خطير، والحضرةُ منيعة رفيعة، والناقد بصير، وينشد:

أحبيبُ قلبي والمحبَّة حجة
تقضي بأنَّك سيدي وحبيبي
أنت الرقيب عليَّ في دين الهوى
أين انفلاتي والحبيب رقيبي؟

معرفة النبي ﷺ باب معرفة الله، فمتى عرف العبد حقيقة نبيه عرف ربه، ومعرفة حقيقته العظيمة لها طريقان:

طريقٌ لفظيٌّ: وهو المنقول [٣٨/ب] المحفوظ من سيرته

وخصاله وأحكام شريعته وجليل شانه.

وطريق معنوي: وهو سر كشفيٌّ ينتجه العمل بأعماله، والقول بأقواله، والأخذ الأكمل في الحركات والسكنات بسنته عليه من الله أشرف الصلاة وأكرم السلام، والوقوف على حقيقة نوره، والاطلاع على المقام الجامع بين مبطنه وظهوره هو عند العلم المورث اللَّدنيِّ الذي انطوت به جميع العلوم، وحارت بدركه الفهوم، وهو المقصود من قوله عليه الصلاة والسلام: «**من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم**(١)» ويهٍ على المحجوبين الذين وقفوا مع الظواهر وما أدركوا سرائر الخفايا المطويَّة في المظاهر، هو يقول: كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين، درك هذه الكينونةِ وفهم مزية النبوة والاطلاع على نسج الصورة الآدمية قائم بحقيقته ومعرب عن سر جامع، وإلَّا فهو لا ينطق هن الهوى، تلك إشارات خاصة قامت مع البلاغ العام، أين أهل الصوامع؟ أين أهل البِيع؟ أين سكان القفار؟ انقطعت حجتهم، وانفصمت محجتهم، هذه نكاتٌ محمديَّةٌ في سرادق ألفاظ ملكيَّةٍ تجمعها حروف صِيغت بمعانٍ قامت بإيجازها بلاغة

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس رضي الله عنه

سيد أهل البيان برهان العقلاء سلطان الأنبياء الذي أوتي جوامع الكلم، واستودع سلك الإرشاد، عقود هذا النظام المنتظم، فالفناء فيه بقاء بالله، وهو سلَّم الدنوِّ الرفيع الناهض بالضعفاء والأقوياء إلى الحضرة القدوسيَّة، وهناك لا بدَّ منه، ولا غنى عنه، ومن حدثته نفسه بالتخلي عن حمايته والتجرد عن وقايته، فقد باء بالخسران المبين، كيف وقد قال له ربه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وكل ما نوه به الصالحون من التخلي والتجرد فهو فيما يؤول إلى حكم تقديم العبوديَّة المحضة لله، لا فيما يؤول للتوسط والتوسل، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ [لقمان: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] وهذا السيد العظيم وسيلة الوسائل، آمنا بالله وبرسوله ﷺ، وكفى بالله وليًا.

[٣٩/أ] وقال الإمام الرفاعي المشار إليه رضوان الله عليه: سر الولاية مرقاة يصل به الولي إلى فهم شأن النبوة، فيعرف عظيم قدر النبي، وبهذا يعظم شأن ربه، ويخشع لعزَّة سلطانه، ويقف ذليًلا منكسرًا متحيرًا، النبوة خدر مضروب عليه سبحات الجلال، منصوب بين الخلق والخالق فيه من سلطان الله أمر

قائم يحكم على كل ذرة مخلوقة في الملك والملكوت، ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، جزاهم الله خير الجزاء، بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة وباعوا أنفسهم الزكية في الله، ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾ [الإسراء: ١٥]، هم صلوات الله عليهم، أعلام الحضرات القدوسيَّة، ملوك دوائر الرحمة، أقمار آفاق الغيب، جبال ساحات الحضور، سادات سادات الأمم، ادعى بعض الأولياء حالة انحجابه بالشطح معاني النبوة، وادعى بعضهم أسرارها من نوع المرتبة، وكلهم في وهدة الدعوى تحت قبضة الخطأ المحض، في قيد السكر، أين الولي من معاني النبوة وأسرارها المنظومة في مرتبتها؟ لو انكشف له منها ما هو أصغر من فتق سمِّ الخياط لأحرقه؛ لعدم قابليَّته لتلقي مضمون المعنى النبويِّ، والسرِّ المطويِّ، في تلك المرتبة العظيمة في ضوء الشمس ما ليس في ضوء القمر، في ضوء القمر ما ليس في أضواء النجوم، لكلِّ مادة نتيجة، ولكلِّ نتيجة عين، ولكل عين نوعية، أصلها حكم ما قام في نفس ذاتها، لا تتعدى هذه الأوصاف مرتبة الاستعداد النوعي والجوهريَّة الذاتيَّة المضمرة

في نوع أصل الخلق، وأين نوع أصل خلقة الأنبياء من نوع أصل خلقة الأولياء؟ أين استعداد أولئك من استعداد أولئك؟ قوابل مختلفة وحقائق منوعة، الأنبياء حجب الجلال، مظاهر الجمال المضروبة المتلألئة أمام سبحات النور الأقدس، أقرب الحجب من حضيرة التنزيه معاني الأسماء التي علمها الملائكة، مباني العلم الذي أفرغ للبشر خزائن [٣٩/ب] الحقائق التي أضمرت في مغارات الغيب، يا ولي بين أرفع درجة من درجات منزلتك، وأدنى درجة من درجات منزلة النبي مائة وثمانون ألف درجة لا سبيل لك عليها البتَّة، حقِّق نفسك بدرجة اتباع النبي ولك الأمن؛ بهذا يحبك الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، الأنبياء شهداء الله على الأمم، والنبي ﷺ الشهيد على الأنبياء والأمم، وعلى أمته، قال الله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: ٨٩]، أي الأنبياء والأمم جميعًا أيُّها الآدمي الذي جاء مطموسًا، قد أنشأ لك ربك السمع والبصر والفؤاد وذرأك في الأرض، ﴿إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [سبإ: ٤٨]، أمعِن النظر بنظام الربوبيَّة، دقِّق سابحة

الفكرة، بشأن النبَّوة، أنت مطالب الحضرتين ﴿يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: ١٨]، انتهى كلامه المبارك، ومن نصِّه تعلم ما للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من المقام العظيم والقدر الكريم عليهم أفضل الصلاة والتسليم.

- وأمَّا الإيمان باليوم الآخر: فهو أن يصدق المؤمن أنَّ القيامة حق، اتفق الملِيِّون على حقيقة القيامة ووجوب البعث والنشر؛ لجوازه عقلًا ووقوعه نقلًا، خلافًا للفلاسفة فإنَّهم ينكرون حشر الأجساد، فلأنَّ جميع الأجزاء على ما كانت عليه، وإعادة تأليف المخصوص فيها أمر ممكن لذاته، والله سبحانه عالم بتلك الأجزاء، قادر على جمعها وتأليفها؛ لِعموم علمه بجميع الأشياء، وقدرته على جميع الممكنات، وصحة القبول من القابل، والفعل من الفاعل، يوجب صحة جوازه قطعًا، وأمَّا وقوعه فلأنَّ الصادق أخبر عنه في مواضعَ لا تحصى، بعبارات لا تقبل التأويل، حتى صار معلومًا بالضرورة كونه من الدين القويم، وكل ما أخبر الصَّادق فهو حق، وأمَّا الفلاسفة فاحتجوا بأنَّ إنسانا لو أكل إنسانا آخر بحيث صار بعض المأكول جزءًا [٤٠/أ] من الآكل، فتلك الأجزاء إمَّا أن

يعاد في كل واحد وهو محال، أو في أحدهما وحده فلا يكون الآخر معادًا بعينه، والجواب: أنَّ المعاد إنَّما هو الأجزاء الأصليَّة وهي الباقية من أول العمر إلى آخره، لا جميع الأجزاء، وهذه الأجزاء في الأكل فضل لأنَّ الإنسان باق مدة عمره، والأجزاء الغذائية تتوارد عليه وتزول عنه، وللخصم أنْ يقرر الدليل على وجهه، لا يندفع بهذا الجواب، وهو أنَّ الإنسان لو أكل من أجزاء إنسان بحيث صارت تلك الأجزاء نطفة في صلبه ثم انتقلت إلى الرحم، ثم صار إنسانا فتلك الأجزاء: إما أنْ يعاد إنسانا كاملًا، أو يعاد أجزاء لذلك الإنسان، فلا يعاد إنسانا كاملًا؛ فهذا ينافي المعاد، ورد بأنَّ ذلك كله ليس إلَّا مجرد جواز في العقل واحتمال في الذهن لا يجب وقوعه في الخارج، وقد علمت جواز المعاد لما مرَّآنفًا، وجواز وقوع أحد النقيضين لا ينافي وقوع الآخر، فضلًا عن جوازه، مثلًا جواز عدم زيد لا ينافي جواز وجوده، ولا ينافي وجوده أيضًا، إنَّما المنافي لوجوده عدمه، كما أنَّ المنافي لعدمه وجوده، فإذا جاز وقوع المعاد وجاز عدمه عقلًا وقد أخبر المخبر الصادق بوقوعه يجب وقوعه نقلًا، فيمتنع ألَّا يقع، وكذا

يمتنع وقوع كلما ينافي المعاد من أكل الإنسان أجزاء آخر، وصيرورته نطفة إلى غير ذلك، فعلى هذا يمكن أن نقول: جرت عادة الله تعالى على أنَّ إنسانا لو أكل إنسانا آخر لا يصير المأكول نطفة لإنسان آخر، كما أنَّه لا يصير أجزاء أصليَّة للآكل، وأنَّه تعالى عالمٌ بكلِّ شيء قادر على كل شيء، ولا يخفى أنَّ هذا جواب عن كلا الوجهين، والله أعلم.

بحث لطيف:

قال الإمام الرفاعي رضي الله عنه في البرهان المؤيد: المصير إلى الله، والرجوع إليه، وكل يعود إلى معدنه، ويستوفي أجله، وتعود عليه المسألة، قال تعالى: ﴿مِنْهَا [٤٠/ب] خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]، هذه الحبة التي تأكلونها نبتت بتراب مثلكم، كان لهم قوة وبأس شديد ذهبوا وبانوا وكأنهم ما كانوا:

هذا تراب لو تفكره الفتى
لرأى عليه من الجِبَاه بساطا
وكأنَّما ذراته لو ميزت
صيغت لألسنة الأولى أسفاطا

ندوس ألسنًا وجباهًا وخدودًا وشفاهًا؛ فاعتبروا يا أولي الأبصار، انتهى كلامه المبارك.

أقول: أمَّاإنكار امتزاج التراب بأجسام المخلوقين فغير معقول، وأمَّا القول بإنتاج نطفة أخرى من الجزء الذي كاد ألَّا

يدرك، أعني الذي مسَّ الحبة المأكولة أو الماء المشروب أو غير ذلك من المأكولات والمشروبات فهو مُخالف لنظام الحكمة الطبيعيَّة التي طبع الله تعالى عليها الوجودات الإنسانيَّة، ولو أمكن ذلك لنتج التناسل عن الأجزاء التي تلحق بالأرض بمجرد خميرتها، ولو أمكن ذلك أيضًا لأخذ بعض من انقطع أملهم من النسل أجزاء بعض الأموات بعينها واستعملوها، وهذا من المستحيلات طبعًا، وانتساق الأشياء ببعضها، وامتزاج الأجزاء بمثلها لا يمنع عن إعادة كل جزء إلى محل تركيبه الأصلي؛ فإنَّ نظام الخالقيَّة متضمن هذه القدرة، والإنشاء أهم من الإعادة، ولله درُّ سيدنا الإمام السيد عزَّ الدين أحمد الصيَّاد(١) سبط الإمام الرفاعي رضي الله عنهما؛ فإنَّه يقول من قصيدة بالتوحيد:

لو قام من أجزاء نوعك مثلها
لتنسَّقت بطباعها الأجزاء

---

(١) عز الدين أحمد الصياد (٥٧٤هـ -٦٧٠هـ): هو الإمام أحمد بن عبد الرحيم بن عثمان بن حسن بن محمد عسلة، ينتهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، سبط الإمام الرفاعي، ولد بالعراق ونشأ وترعرع عند الإمام الرفاعي، كثير الخشوع، كثير الكرامات، توفي في متكين ودفن فيها، وله مقام يزار.

ولـقـام مـثـل الـجـزء مـن تـركـيـبـه

وتـبـدلـت عـن شـكـلـهـا الأشـيـاء

وجـرى عـلـى مـنـوال كـل مـركـب

شـيء وخـل الـنـظـم والإبـداء

أقـوال قـوم ضـلـلـت أراؤهـم

وبـنـورهـا تـتـفـاوت الآراء

نـسـق بـإبـداع قـديـم سـره

قـامـت بـه الآبـاء والأبـنـاء

[٤١/أ] انتهى، وأمَّا المعاد فإنَّه يحتمل أن يكون على نوعين إمَّا إعدام العالم بالكليَّة ثم إعادته رأسًا، أو تفريق أجزائه ثم إعادة تأليفه، قال صاحب المواقف: الحق أنَّه لم يثبت ذلك ولا جزم فيه لا نفيًا ولا إثباتًا؛ لعدم الدليل وما يحتج به على الإعدام من قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: ٨٨] ضعيف فإنَّ التفريق هلاك كالإعدام؛ لأنَّ هلاك كل شيء خروجه عن صفاته المطلوبة منه، وزوال التأليف الذي يصلح الأجزاء لأفعالها، ويتم منافعها والتفريق كذلك الاحتجاج صحيح؛ لأنَّ كل ما في العالم إمَّا مفرد أو مؤلف من مفردات

متعددة، وكما أن للمؤلف هلاك كذا للمفرد هلاك لعموم قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ [القصص: ٨٨] عموماً لا يحتمل التخصيص لوقوع المعاد على كل موجود ولا يتصور المعاد إلا بعد الهلاك فإذا كان هلاك المؤلف تفريق مفرداته كان هلاك المفرد قطعاً إعدامه بالكلية فمن اعترف بإعدام مفردات العالم لزمه الاعتراف بإعدام مؤلفاته؛ لأنَّ إعدام جميع أجزاء الشيء إعدام له بالكلية، فعلى هذا لا يُتصور المعاد إلَّا بالإعدام بالكليَّة ثم الإعادة، ثم قال شارح المواقف - رحمه الله -: اعلم أنَّ الأقوال الممكنة في مسألة المعاد لا يزيد على خمسة:

الأول: ثبوت المعاد الجسماني فقط، وهو قول أكثر المتكلمين النافين للنفس الناطقة.

والثاني: ثبوت المعاد الروحاني فقط، وهو قول الفلاسفة الإلهيين.

والثالث: ثبوتهما معًا، وهو قول كثير من المحققين كالحليمي(١) ....

(١) الحليمي: أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم، الفقيه الشافعي =

والغزالي والراغب[1] وأبي زيد الدبوسي[2]، وكثير من مشايخ الصوفية، فإنَّهم قالوا: الإنسان بالحقيقة هو النفس الناطقة وهي المكلف، والمطيع والعاصي، والمثاب والمعاقب، والبدن تجري منها مجرى الآلة والنفس باقية بعد خراب البدن، فلمَّا أراد الله تعالى حشر الخلائق خلق لكل [٤١/ب] واحد من الأرواح بدنًا يتعلق به ويتصرف فيه كما كان في الدنيا.

الرابع: عدم ثبوت شيء منها، وهذا قول القدماء من الفلاسفة الطبيعيين.

والخامس: التوقف في هذه الأقسام، وهو المنقول عن

= المعروف بالحليمي الجرجاني؛ ولد بجرجان سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة، وتوفي سنة ٤٠٣هـ وحمل إلى بخارى، وكتب الحديث، ثم صار إماماً معظماً مرجوعاً إليه بما وراء النهر. وتوفي في جمادى الأولى رَحِمَهُ اللهُ، ونسبته إلى جده حليم المذكور.

(١) الراغب: (٠٠٠ -٥٠٢هـ = ٠٠٠ -١١٠٨م): الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهاني المعروف بالراغب، أديب من الحكماء سكن بغداد واشتهر حتى قرن بالإمام الغزالي، له كتب عديدة.

(٢) أبو زيد الدبوسي: (٠٠٠ - ٤٣٠هـ = ٠٠٠ - ١٠٣٩م) عبد الله بن عمر بن عيسى، أبو زيد: أول من وضع علم الخلاف وأبرزه إلى الوجود، كان فقيهًا باحثًا. نسبته إلى دبوسية ووفاته في بخارى، عن ٦٣ سنة.

جالينوس[1] الحكيم؛ فإنَّه قال: لم يبين لي أنَّ النفس هل هي المزاج فينعدم عند الموت فيستحيل إعادتها، أو هي جوهر باقٍ بعد فساد البدن، فيمكن المعاد حينئذٍ، أقول: القول الأول مثل القول الثالث في أمر المعاد؛ لأنَّ أكثر المتكلمين وإن نفوا النفس الناطقة المجردة، لكن هم قائلون بالروح، مع اختلاف أقوالهم في ماهيتها، وبأنَّها باقية بعد خراب البدن، ثم أعادها الله إلى البدن بعد حشر الأبدان، فهم قائلون أيضًا بالمعاد الروحانيِّ والجسمانيِّ معًا؛ إذ معنى معاد البدن: وجوده بعد فنائه، ومعنى معاد الروح: عودها إلى البدن مثلما كانت في النشأة الأولى، إلا أنَّهم لم يقولوا: هذا الروح جوهر مجرد عن المادة، كما يقول أصحاب القول الثالث، والله أعلم.

---

(١) الفيلسوف الطبيعي اليوناني، مدينة فرغاموس من أرض اليونانيين، إمام الأطباء في عصره ورئيس الطبيعيين في وقته مؤلف الكتب الجليلة في الطب، ومؤلفاته: تنيف على ستين مؤلفًا، وكان بعد المسيح عليه السلام بنحو مائتي سنة، هو من بلاد إيشيا شرقي قسطنطينية، وبرع في الطب والفلسفة والرياضة وهو ابن سبع عشرة سنة، وفاق في علم التشريح،كانت ديانته النصرانية، مات في مدينة سلطانية، وقبره بها وعاش ثمان وثمانين سنة وكان يأخذ نفسه في كل يوم بقراءة جزء من الحكمة وانتهت إليه الرياسة في عصره.

فائدة: قال سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه وعنَّا به في بعض مجالسه الشريفة: أنكر قوم من الضالين والمردودين المغضوب عليهم مادة الروح، وخبطوا بالكلام على إنكارها خبط عشواء، وهي من أمر الله، ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، والأمر معنوي ولازمه مادي، فالمادة الثقيلة القائمة بذلك الأمر المعنوي الذي هو الروح، إنما هي الجسد ولا سبيل لإنكار قيام الجسد بها، ولا حجة على قيام وجودها بالجسد، وحيث كان الجسد قائمًا بها وهي غنيَّة عنه تعين كونها سرًا أمريًّا موجودًا في الوجود، وهو غيره ويقوم بنفسه وبه يقوم الوجود ولا يدرك للطافته، وفيه مادة منبجسة من معناه، وتلك النفس وفيه قوام جولة الدم في الهيكل ففقدان المادة المنبجسة منه دليل على مفارقته الوجود وكل الأسباب [٤٢/أ] التي تدفع المادة التي هي معنى الروح، أعني النفس عن الهيكل فهي من طوارق الأقدار التي قضت بانفكاك هذا الأمر المبعض عن الجسد القائم بها وله شواهد عليه منه دالة على عظمة الخالق العليم الخبير: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤]، وأمَّا الإيمان بالقدر خيره وشره، فاعلم أنَّ هاهنا مذاهب،

الأول: مذهب الأشاعرة وجمهور أهل السنة، وهو أنَّ الأشياء كلها واقعة بقدر الله، ابتداء من غير واسطة حتى الأفعال الاختياريَّة للإنسان،

الثاني: مذهب الفلاسفة، وهو أنَّ الله واحد ولا يصدر من الواحد إلا الواحد، فما صدر من الله ابتداء إلا العقل الأول فهم لا يسندون الأشياء إلى الله تعالى ابتداءً بل يقولون سلسلة الأسباب تنتهي إلى الله تعالى بوسائط، الثالث: مذهب المعتزلة، وهو أنَّ الأفعال الاختياريَّة للعباد ليست واقعة بقدرة الله تعالى، بل بقدرة العبد وحده،

الرابع: مذهب الأستاذ أبي إسحاق الأسفرايني، وهو أنَّ الأفعال الإنسانيَّة واقعة بمجموع القدرتين من غير ترتيب،

الخامس: وهو مذهب إمام الحرمين، وهو أنَّ أفعال العباد واقعة بمجموع القدرتين، لكن بالترتيب بأنَّ الله تعالى خلق قدرة العبد في العبد بقدرته، ثم العبد فعل بقدرته، ثم المعتزلة ذهبوا إلى أنَّ الله تعالى ليس مريدًا للشر بناء على أصلهم الفاسد وهو أنَّ القبيح لا يصدر من الله، والمعلوم أنَّ القبح والحسن صفتان راجعتان إلى القائلِ، والفاعلُ لهما لم يتصف بشيء منهما،

كماأنَّ الصباغ تارة يجعل الثوب أخضر، وتارة يجعل أسود، فالمتصف بالسواد والخضرة هو الثوب لا الصباغ، وإن كانا بجعل الصباغ، ومذهب أهل السنة أنَّ الأشياء كلها خيرها وشرها، حسنها وقبيحها، واقعة بقدرة الله تعالى وبعلمه وإرادته، لكنَّه تعالى راضٍ بخيرها عن العباد، وساخط بشرها لهم.

١٤. (فريدة): ترتيب أفضلية الصحابة رضوان الله عليهم

[٤٢/ب] قد اعتقد أهل السنة والجماعة وفاقًا أنَّ أفضل الناس بعد النبي ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم وأنَّ المقدم في الخلافة هو المقدم في الفضيلة؛ لاستحالة تقديم المفضول على الفاضل؛ لأنَّهم كانوا يراعون الأفضل فالأفضل، والدليل عليه أنَّ أبا بكر رضي الله عنه لمَّا نص على عمر رضي الله عنه قام إليه طلحة رضي الله عنه فقال له: ما تقول لربك وقد وليت علينا فظًّا غليظًا؟ قال له أبو بكر رضي الله عنه: فركت لي عينيك ودلكت لي عقبيك وجئتني تكفني عن رأيي، وتصدني عن ديني، أقول له إذا سألني: خلفت عليهم خير أهلك، فدل على أنَّهم كانوا يراعون الأفضل فالأفضل، وأنَّ النبي ﷺ لم يصرح بالنص على أحد، وإنَّما ثبتت الخلافة بالإجماع لا بالنص، وقيل أنَّها ثبتت بالنص ولكنَّه نصٌّ خفي، يحتاج إلى تأويل، وتأمل مثل قوله ﷺ: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»(١)، لا ينبغي لقوم فيهم أبو بكر أن

(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما والترمذي والنسائي في سننهما من

=

يتقدمهم غيره، «**اقتدوا بالذي من بعدي، أبو بكر وعمر**[1]»، وكقوله في علي رضي الله عنه: «**أنت منِّي بمنزلة هارون من موسى، من كنت مولاه فعلي مولاه**[2]» والصحيح أنَّه لم ينص على أحد، والدليل عليه قوله ﷺ: «**إن تولوها أبا بكر تجدوه ضعيفًا في بدنه، قويًا في أمر الله، وإن تولوها عمر تجدوه قويًا في بدنه قويًا في أمر الله، وإن تولوها عثمان تجدوه هاديًا مهديًا، وإن تولوها عليًا يهديكم إلى الصراط المستقيم**[3]»، وأخبر أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يصلح للإمامة على الانفراد، ولم ينص على أحد؛ لأنَّه لو نص على أحد لَمَا قال: إنْ تولوها، ولَمَا قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، فدل على أنَّ الخلافة بعد النبي تثبت بالإجماع لا بالنص، والإجماع حجة، قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ [٤٣/أ] لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:

= حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وأبو داود في سننه من حديث سهل بن سعد.

(١) رواه الترمذي في سننه، والإمام أحمد في مسنده، وابن أبي شيبة في مصنفه، والحاكم في المستدرك من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجة والنسائي في سننهما من حديث أسماء بنت عميس رضي الله عنها.

(٣) الحديث بهذا اللفظ رواه الحاكم النيسابوري من رواية حذيفة رضي الله عنه.

١١٥]، ومن الأدب السكوت عمَّا شجر بين الصحابة رضي الله عنهم وذكر محاسنهم لِمَا روي عن النبي أنَّه قال: «**سيجري بين أصحابي هنيهة - أي فتنة - يغفرها الله تعالى لهم بسابقتهم فإياكم وما شجر بينهم؛ فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا لَمَا بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**[1]»، وقال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، وقال عز وجل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التوبة: ١٠٠].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه وابن ماجه والنسائي قي سننهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بنحوه.

١٥ - (فريدة): في نجاة والديّ المصطفى ﷺ وأنهما من أهل الجنة وكذلك أبو طالب

وأهل النور القلبيِّ من أهل الإيمان الكامل والأدب الصحيح مع النبي ﷺ يقولون بنجاة أبويه الطاهرين رضي الله عنهما، بل وبنجاة عمه أبي طالب، اعلم: - كان الله لنا ولك -: أنَّ الأئمة الأعلام والعلماء الكرام الذين نور الله قلوبهم بمعرفة قدر نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام، كلهم اتفقوا على أنَّ آباء المصطفى عليه الصلاة والسلام وأمهاته من عبد الله وآمنة رضي الله عنهما إلى آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام كلُّهم طاهرون مطهَّرون، محفوظون من السفاح والشرك وعبادة الأصنام، بل وجميعهم من أهل الجنة، ولهم فيها المنازل الكريمة والمراتب العظيمة ببركته ﷺ، فكل من اعتقد في أحد منهم نقصًا فهو الناقض العهد والذمام وهو مؤذٍ لرسول الله، ومقتحم الكفر أيَّ اقتحام! قال العلامة الدميريِّ[1] فيما سطره في أول كتاب السير:

---

(١) الدميري (٧٤٢ - ٨٠٨ هـ = ١٣٤١ - ١٤٠٥م) محمد بن موسى بن عيسى بن =

مـحـمـدٌ خـيـرُ جـمـيـعِ الـخـلـق
جـاء مـن الـحـقِّ لـنـا بـالـحـق

دعـوة إبـراهـيـم الـخـلـيـل
بـشـارة الـمـسـيـح فـي الـتـنـزيـل

الـطـيِّـب الأصـول والـفـروع
الـطَّـاهـر الـمـجـتـهـد الـيـنـبـوع

آبـاؤه قـد طـهـرت أنـسـابًـا
وشـرفـت مـن الـورى أحـسـابًـا

نـكـاحـهـم مـثـل نـكـاح الإسـلام
كـذا رواه الـنُـجـبـا الأعـلام

ومـن أبـى أوشـك فـي هـذا كـفـر
وذنـبـه فـيـمـا جـنـاه مـا اغـتـفـر

نـقـل ذا الـحـافـظ قـطـب الـديـن
عـن صـاحـب الـتـبـيـان والـتـبـيـين

= على الدميري، أبو البقاء، كمال الدين: باحث، أديب، من فقهاء الشافعية. من أهل دميرة (بمصر) ولد ونشأ وتوفي بالقاهرة. كان يتكسب بالخياطة ثم أقبل على العلم وأفتى ودرس، وكانت له في الأزهر حلقة خاصة، وأقام مدة بمكة والمدينة.

وقال الحافظ ابن ناصر الدمشقيِّ[١] - رَحِمَهُ اللهُ -:

حفظ الإله كرامة لمحمد
آباءه الأمجاد صونًا لاسمه

تركوا السفاح فلم يصبهم عاره
من آدم وإلى أبيه وأمه

ومن المصائب الفادحة، رسالة ألفها منلا علي القاري الهروي[٢] في كفر الأبوين الشريفين، وأظهرها مفتخراً بها، والحال أن الافتخار بمثلها فضيحة وعار، وربما دلت على سوء الأدب وقلة الوقار، بل ربما دلت على الكفر والبوار، وإن إمام المسجد الحرام العلامة عبد القادر الطبري[٣] ألف رسالة في

---

(١) ابن ناصر الدمشقي: (٧٧٧-٨٤٢ هـ =١٣٧٥-١٤٣٨م): محمد بن عبد الله بن محمد بن مجاهد القيسي، شمس الدين الشهير بابن ناصر، حافظ للحديث، مؤرخ، أصله من حماه، ولد في دمشق، وولي مشيخة دار الحديث الأشرفية، قتل شهيدًا في قرى دمشق،له مؤلفات عدة.

(٢) ملا علي القاري: أبو الحسن نور الدين علي بن محمد الملا الهروي القاري (ت١٠١٤هـ)، فقيه حنفي، من علماء عصره.

(٣) عبد القادر الطبري: عبد القادر بن محمد بن يحيى المكي الشافعي، إمام أئمة الحجاز، له مؤلفات عديدة، (٩٧٦-١٠٣٣هـ).

الرد عليه، وأبدع وأغلظ عليه وشنع والسيد محمد ابن رسول البرزنجي(١) رحمه الله تعالى تصدى أيضاً للرد عليه، إلا أن رده كان بإنصاف وفيه إقامة الأدلة.

وقد انتدب لهذا الشأن الجمّ الغفير من العلماء الأعيان وفصَّلوا تفاصيل شريفة ملخَّصها أنَّ أهل الفترة قبل بلوغ الدعوة ليسوا كفارًا بالمعنى الذي يوجب دخولهم للنار؛ إذ لا كفر قبل التكذيب والإنكار، ولا تكذيب ولا إنكار إلَّا بعد بلوغ الدعوة، ولا دعوة إلَّا بعد بعثة الرسول، فالمتقدم على التكذيب بمراتب لا يكون كافرًا بالمعنى المذكور، فالكافر إذا أطلق لا يحمل إلَّا على المذكور، وهو المكذب بالرسول، جاحدٌ لنبوَّته، منكرٌ لِما جاء به، قال: والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسرَاء: ١٥]، [٤٤/أ] روى ابن جرير(٢) وابن

(١) محمد بن رسول البرزنجي: هو السيد محمد بن رسول بن عبد السيد الحسيني البرزنجي الشهرزوري المدني، دفن بالبقيع (١١٠٣هـ).

(٢) ابن جرير (٢٢٤ - ٣١٠ هـ = ٨٣٩ - ٩٢٣م) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر: المؤرخ المفسر الإمام. ولد في طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها، وكان أسمر، أعين، نحيف الجسم، وهو من ثقات المؤرخين، وفي تفسيره ما يدل على علم غز،ير وتحقيق. وكان مجتهدا في

=

أبي حاتم[1] عن قتادة[2] في تفسير الآية أنَّ الله تعالى ليس بمعذب أحدًا حتى يسبق إليه من الله خبرًا، أو يأتيه من الله بينة، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [القَصَص: ٤٧] إلى: ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعَام: ٢٧]، روى ابن أبي حاتم في تفسيره بسند حسن عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه رفعه الهالك في الفترة يقول: لم يأتني كتاب ولا رسول، ثم قرأ هذه الآية، قال الإمام النووي[3] في شرح مسلم في مسألة

= أحكام الدين لا يقلد أحدا، فصيحاً، مصنفاته كثيرة.

(١) ابن أبي حاتم (٢٤٠ - ٣٢٧ هـ = ٨٥٤ - ٩٣٨م) عبد الرحمن بن محمد أبي حاتم بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، أبو محمد: حافظ للحديث، من كبارهم، كان منزله في درب حنظلة بالري، وإليهما نسبته. له تصانيف عديدة أشهرها التفسير بعدة مجلدات

(٢) قتادة (٦١ - ١١٨ هـ = ٦٨٠ - ٧٣٧م) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري: مفسر حافظ ضرير أكمه، قال الإمام أحمد ابن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة، وكان مع علمه بالحديث، رأسًا في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب.

(٣) النووي (٦٣١ - ٦٧٦ هـ = ١٢٣٣ - ١٢٧٧م) يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين: علامة بالفقه والحديث. مولده ووفاته في نوا من قرى حوران، واليها نسبته.

=

أطفال المشركين: المذهب الصحيح المختار الذي صار إليه المحققون أنَّهم في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وإذ كان لا يعذب البالغ لكونه لم تبلغه الدعوة فصغيره أولى، فهذه أقوال الفقهاء، انتهى.

قال العلامة ابن حجر في شرح الهمزيَّة: وأمَّا الذين صح تعذيبهم مع كونهم من أهل الفترة فلا يردون نقضًا على قاعدة الأشاعرة من أهل الكلام والأصول والشافعيَّة من الفقهاء: أنَّ أهل الفترة لا يعذبون، وسبب ذلك أنَّا عهدنا الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام أنَّه حُكم بكفره مع صباه لأمر يعلمه الله ورسوله، فلا يرد هؤلاء نقضًا على ما استفيد من الآيات، ومشى عليه أولئك الأئمة: أنَّ أهل الفترة لا يُعذبون، وهذا الذي ذكرته في الجواب أولى من الجواب بأنَّ أحاديثهم أخبار، فلا تعارض القطع فإن أهل الفترة لا يعذبون، أو بأنَّ التعذيب المذكور في الأحاديث مقصور على من غيَّر أو بدَّل من أهل الفترة بما لا يعذر به كعبادة الأوثان وتغيير الشرائع، وكان قائل

= تعلم في دمشق، وأقام بها زمناً طويلاً، مؤلفاته كثيرة مشهورة.

هذا يرى وجوب الإيمان بالعقل، والذي عليه أكثر أهل السنة والجماعة: أنَّه لا يجب توحيد ولا غيره إلَّا بعد إرسال الرسل إليهم، ومن المقرر بأنَّ العرب لم يرسل إليهم رسول بعد إسماعيل، وأنَّ إسماعيل انتهت رسالته بموته، فلا فرق بين من غيَّر وبدَّل وبين [٤٤/ب] غيره، ما عدا من صحَّ تعذيبهم فيقتصر ذلك عليه، وقول أبي حيان(١): إنَّ الرافضية هم القائلون أنَّ آباء النبي غير معذبين مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٩] بأنَّ مثل أبي حيان إنَّما يرجع إليه في علم النحو وما يتعلق به، وأمَّا المسائل الأصوليَّة فهو عنها بمعزل، كيف والأشاعرة ومن ذكر معهم فيما مرَّ آنفًا على أنَّهم مؤمنون؟ فنسبة ذلك للرافضيَّة وحدهم مع أنَّ هؤلاء الذين هم أئمة أهل السنة قائلون به فقصور وأيُّ قصور؟! وتساهل وأيُّ تساهل؟! انتهى.

---

(١) أبو حيان النحوي (٦٥٤ - ٧٤٥ هـ = ١٢٥٦ - ١٣٤٤م) محمد بن يوسف بن على بن يوسف ابن حيان الغرناطي الاندلسي الجياني، النفزي، أثير الدين، من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات، ولد في إحدى جهات غرناطة، وتنقل إلى ان أقام بالقاهرة وتوفى فيها، بعد ان كف بصره، واشتهرت تصانيفه في حياته وقرئت عليه.

تنبيه: لا يجوز إطلاق الكفر على والدي النبي ﷺ ولو مجازًا، وإنْ قلنا إنَّهما من أهل الفترة وأنَّه يجوز إطلاق الكفر على أهل الفترة مجازًا؛ لأنَّه إيذاءٌ لرسول الله ﷺ، وإيذاؤه ﷺ حرام كما سيأتي، على أنَّا سنبين أنَّهما ماتا موحدين أو مؤمنين به ﷺ، على أنَّ الحافظ جلال الدين السيوطي[1] أنكر ثبوت إطلاق الكفر على من لم تبلغه الدعوة في شيء من الحديث قال: وأنا لا أثبته، وكفى به حافظًا متضلعًا من الحديث، مطلعًا على خباياه، ثم إعلم أنَّه لم يثبت لا من الكتاب ولا من السنة ولا من الإجماع ولا من القياس دليل على أنَّ الأبوين الشريفين في النار وأنَّهما كافران، ولم يذكر ذلك أحد من الأئمة المجتهدين المتبوعين لا من الأربعة ولا من غيرهم، وليس هذا من المسائل التي تتعلق بالاعتقاد الواجب في الشرع، بل

(١) جلال الدين السيوطي: (٨٤٩-٩١١هـ =١٤٤٥-١٥٠٥م): عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين، ولد وتوفي بالقاهرة، كان والده عالمًا صالحًا مات وهو صغير فنشأ الطفل يتيمًا، وتوجه إلى حفظ القران والعلم، وقام بعدة رحلات، وقام بالتدريس، اعتزل الحياة العامة والسلاطين، بلغت مؤلفاته حوالي ستمائة مصنف، وقد توفي بمنزله ودفن بالقرافة، وقبره معروف.

الواجب اعتقاد نجاتهما كما سيأتي، وبيان ذلك: أمَّا من الكتاب فواضح أنَّه لا دليل على ذلك، ومن قرأ القرآن علم أنَّه ليس فيه أنَّ أبوي النبي ﷺ في النار، ولا صريحًا ولا كنايةً ولا تعريضًا ولا منطوقًا ولا مفهومًا ولا إشارة ولا رمزًا ولا إيماءً ولا دلالة مطابقةً ولا تضمن [٤٥/أ] ولا التزام، ولا بوجهٍ من وجوه الدلالة، ومن ادعى شيئًا من ذلك فعليه البيان لينظر فيه، بل في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، إشارة إلى أمره ﷺ بالدعاء والاستغفار لهما؛ فإنَّه أول مخاطَب بهذه الآية، وقد خُصَّ في هذه الآية بالخطاب لِئَلَّا يظن أنَّ المراد بها الأمة فقط بعد أن عمَّه بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، والمعلوم من أحواله أنَّه قالها ﷺ؛ لأنَّه كان من عادته إذا مر بآية رحمة سألها، أو آية عذاب استعاذ، أو آية دعاء دعا كما ثبت ذلك في الصحيح، ونكتة أخرى جليلة وهي: أنَّه أمر بالترحم لها دون الاستغفار؛ لأنَّ المغفرة فرع وجود الذنب، وهو فرع التكليف، وهو فرع البعثة كما سيأتي تفصيله، وهما قد ماتا قبل البعثة، فلا تكليف فلا ذنب ولا استغفار حقيقة، وأخرى وهي أنَّه أتى

بإنْ الدالة على الشك في الوقوع وأكدها بما الزائدة لتأكيد الشك في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسرَاء: ٢٣]، إشارة إلى أنّ أبويه لم يبلغا الكِبر عنده، فالآية نظير قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥]، ومن تأمل دقائق القرآن وجدها بحرًا لا ساحل له، ولا يقاسان على من أدرك النبوة وبلغته الدعوة ومات على الكفر؛ لأنَّ القياس لا مدخل له هنا لعدمِ الجامع، ولا يصحُّ الحكم على عموم أهل الفترة بالنار كما سيأتي بأدلته، والقياس على والديِّ الأنبياء يقتضي نجاتهما فإنَّهم كلهم ناجون، أمَّا أمهاتهم فقد قال الحافظ السيوطي: استقرأتُ أمهات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فوجدتهن كلهنَّ مؤمنات؛ فأمُّ إسحاق وموسى وعيسى وحواء وأم شيث مذكورات في القرآن، بل قيل بنبوتهن [٤٥/ب] ووردت الأحاديث بإيمان هاجر أم إسماعيل، وأم يعقوب وأمهات أولاده، وأم داود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وشمويل، وشمعون، وذا الكفل، ونصَّ بعض المفسرين على إيمان أم نوح، وأم إبراهيم، ورجَّحه أبو حيان في تفسيره،

وأخرج الحاكم(١) في المستدرك وصححه عن ابن عباس قال: كانت الأنبياء في بني إسرائيل إلَّا عشرة: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وبنو إسرائيل كلُّهم كانوا مؤمنين لم يكن فيهم كافرًا إلى أنْ بعث عيسى فكفر به من كفره، بقي أم هود وصالح ولوط وشعيب يحتاج إلى نقل أو دليل، والظاهر إن شاء الله تعالى إيمانهن، انتهى، وأمَّا الآباء: فآدم وعيسى لا أب لهما، وأمَّا شيث فأبوه آدم، وأمَّا إدريس ونوح فقد صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه لم يكن بين نوح وآدم والد كافر؛ ولهذا قال نوح: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا﴾ [نُوح: ٢٨]، وأمَّا والد إبراهيم فقد قال: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾ [إبراهيم: ٤١]، وآزركان عمه، والنهي عن الاستغفار إنَّما هو لعمه آزر لا لأبيه، وإسماعيل وإسحاق

(١) الحاكم: (٣٢١-٤٠٥هـ = ١٠١٤م): أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، ولد وتوفي في نيسابور، ورحل إلى العراق، وقد تولى القضاء مرة بعد مرة؛ فلقب بالحاكم، ثم اعتزل وتفرغ للعلم، فكان من أهل الدين والأمانة والورع، مؤلفاته كثيرة أهمها المستدرك في الصحيحين.

ويعقوب وأولاده وسائر أنبياء بني إسرائيل لا يسأل عن آبائهم؛ فإنَّهم كلهم مؤمنون، وبقي أبو هود وصالح ولوط وشعيب بهمة حالهم فلا يحكم بكفرهم، والرجاء في الله تعالى أنَّهم مؤمنون؛ فان الأب لا يستنكف عن كمال ابنه، بل يود أنْ يكون أحسن منه فلا يحسده، وإنَّما يمنع من الإتباع غالبًا الحسد، وإذا أثبت إيمان والدي الأنبياء وهو لا شك كمال للولد، والذي نعتقده أنَّ الله تعالى قد جمع كمالات الأنبياء كلها في محمد ﷺ، بل وأعطاه أقصى مراتب الإمكان من الكمال، فلا أكمل منه في سائر الممكنات؛ فينبغي أن يكون الله تعالى أعطاه ذلك الكمال أيضًا، وهذا ظاهر ونور [٤٦/أ] الفضل الإلهي فيه ساطع باهر، وقد أخرج الإمام أحمد والبزار والطبراني والحاكم والبيهقي عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، أنَّ رسول الله قال: «**إنِّي عند الله لخاتم النبيين وان آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم عن ذلك، أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى والرؤية التي رأت أمِّي، وكذلك أمهات الأنبياء يرين**»، فانظر إلى قوله: «**وكذلك أمهات الأنبياء يرين**» يشير بذلك لما قلناه، ويُستفاد منه إيمان أم هود وصالح ولوط وشعيب.

- دقيقة: انظر إلى فضل آمنة حيث قرنها النبي ﷺ في الإخبار بنبوته بنبيين من أولي العزم، إبراهيم وعيسى وعدل بشارتها ببشارتهما، ومن فروع جمع جميع الكمالات له أنه كما ورد في أحاديث بلغت حد التواتر لم يجتمع له قط أبوان على السفاح، إلى أنْ خرج من بين أبويه، ورد ذلك عن علي وابن عباس وعائشة ومحمد الباقر وأبي هريرة وواثلة بن الأسقع وأنس وغيرهم، وأخرج ابن سعد(١) وابن عساكر(٢) عن الكلبيِّ(٣) قال: كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أم، فما وجدت فيهن

(١) ابن سعد (١٦٨ - ٢٣٠ هـ = ٧٨٤ - ٨٤٥م) محمد بن سعد بن منيع الزهري، مولاهم، أبو عبد الله، مؤرخ ثقة، من حفاظ الحديث، ولد في البصرة، وسكن بغداد، فتوفي فيها. وصحب الواقدي المؤرخ، زمانًا، فكتب له وروى عنه، وعرف بكاتب الواقدي. وحديثه يدل على صدقه فانه يتحرى في كثير من رواياته. أشهر كتبه (طبقات الصحابة - ط) اثنا عشر جزءا، يعرف بطبقات ابن سعد (١).

(٢) ابن عساكر: (٦٢٩ - ٧٢٣ هـ = ١٢٣١ - ١٣٢٣م) القاسم بن أبي غالب المظفر بن محمود، من بني هبة الله بن عساكر الدمشقي، بهاء الدين: طبيب، عالم بالحديث، كان يعالج المرضى مجانا، لزم بيته في أعوامه الأخيرة، منقطعًا إلى تدريس الحديث، مولده ووفاته في دمشق.

(٣) الكلبيّ: أبو المنذر هشام بن محمد (ت٢٠٤هـ) مؤرخ، وعالم أنساب وأخبار العرب وأيامها.

سفاحًا ولا شيئًا ممَّا كان من أمر الجاهلية، ثم قال: وقال الحافظ السيوطي: وجدت بخط الشيخ عماد الدين الشمني(١) الحنفي ما نصُّه: سئل القاضي أبو بكر ابن العربي(٢) عن رجل قال: إنَّ أبا النبي في النار، فأجاب بأنَّه ملعون؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧]، ولا أذى أعظم من أنْ يقال عن أبيه إنه في النار، وفي مختصر تذكرة الإمام القرطبي(٣)

---

(١) الشمني (٨٠١ - ٨٧٢ هـ = ١٣٩٩ - ١٤٦٨م) أحمد بن محمد بن محمد بن حسن بن علي الشمني القسنطيني الأصل، الإسكندري. أبو العباس، محدث مفسر نحوي. ولد بالإسكندرية، وتعلم ومات في القاهرة.

(٢) ابن العربي (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ = ١٠٧٦ - ١١٤٨م) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، أبو بكر ابن العربي: قاض، من حفاظ الحديث، ولد في إشبيلية، ورحل إلى المشرق، وبرع في الأدب، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين، وصنف كتبًا في الحديث والفقه والتفسير والأدب والتاريخ. وولي قضاء إشبيلية، ومات بقرب فاس، ودفن بها.

(٣) القرطبي (٠٠٠ - ٦٧١ هـ = ٠٠٠ - ١٢٧٣م) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الانصاري الخزرجي الاندلسي، أبو عبد الله، من كبار المفسرين، صالح متعبد، من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق واستقر بمنية بمصر وتوفي فيها، كان ورعًا متعبدًا، طارحًا للتكلف، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية، مؤلفاته كثيرة أهمها تفسيره الضخم في عشرين جزءًا.

للقطب الرباني سيدي عبد الوهاب الشعراني - قدس الله سره العزيز - في باب الأمور التي [٤٦/ب] تذكر الموت: كان لبعض العارفين إذا علم أنَّ أحدًا من الأموات كان مسرفًا على نفسه وزاره لا ينصرف عن قبره حتى يشفع فيه عند الله ﷻ، ويجد أمارات القبول، كلما زار عليه الصلاة والسلام قبر أمه وأبيه وسأل الله تعالى أن يحييهما له حتى يؤمنا به، ففعل له ذلك لكونهما ماتا في أيام الفترة، فكان في ذلك كمالهما وكأنَّهما أدركا زمن رسالته ﷺ وآمنا به، وكذلك ذكر سلمة بن سعيد الجعقي(١) ؓ أنَّ الله تعالى أحيى النبي عمَّه أبا طالب وآمن به، وكراماته ﷺ ومعجزاته أكبر من ذلك، وقد صنَّف شيخنا الحافظ جلال الدين السيوطي في ذلك عدة مؤلفات وذكر اثني عشر حافظًا من حفَّاظ الإسلام، كل منهم قائل بذلك، وهو اعتقادنا الذي نلقى الله تعالى به إنَّ شاء الله، انتهى، وكذلك في اليواقيت والجواهر نقلًا عن الشيخ الأكبر سيدي محي الدين ابن العربي - قدس الله سره العزيز - بعد كلام ذكره قال: وأمَّا

(١) لعله سلمة بن يزيد الجعفي ؓ صحابي روى عدة أحاديث عن رسول الله ﷺ.

وجوب الكف عن الخوض في حكم أبوي النبي ﷺ في الآخرة، فللشيخ الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي - رحمه الله - في هذه المسألة ست مؤلفات، وقد طالعتها كلها فرأيتها ترجع إلى أنَّ الأدب مع رسول الله واجب، وأنَّ من آذاه فقد آذى الله تعالى، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، في القرآن العظيم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، ومن طالع فيما نقله أهل السير من كلام عبد المطلب لمَّا أراد نحر عبد الله في قصة حفر بئر زمزم شهد له بالتوحيد، وصاحب التوحيد سعيد بأيِّ وجه كان توحيده، قال الجلال السيوطي: وقد ورد في الحديث أنَّ الله تعالى أحيى أبويه ﷺ [٤٧/أ] حتى آمنا به، وعلى ذلك جماعة من الحفاظ منهم: الخطيب البغدادي[١] وأبو القاسم ابن

(١) الخطيب البغدادي: (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ = ١٠٠٢ - ١٠٧٢م) أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر، المعروف بالخطيب: أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين. مولده في (غزية) ومنشأه ووفاته ببغداد، رحل إلى مكة وسمع بالبصرة والدينور والكوفة وغيرها، وحدثت شؤون خرج على أثرها مستترًا إلى الشام فأقام مدة في دمشق وصور وطرابلس وحلب، سنة ٤٦٢ هـ ولما مرض مرضه الاخير وقف كتبه وفرق جميع ماله في وجوه البر وعلى أهل العلم

=

عساكر وأبو الحفص ابن شاهين[1] والسهيليُّ[2] والقرطبي ومحبُّ الدين الطبري[3] وابن المدبر[4] وابن سيد الناس[5]

= والحديث، وكان فصيح اللهجة عارفًا بالأدب، يقول الشعر، ولوعًا بالمطالعة والتأليف، مؤلفاته كثيرة.

(١) ابن شاهين (٨١٣ - ٨٧٣ هـ = ١٤١٠ - ١٤٦٨م) خليل بن شاهين الظاهري، غرس الدين، يعرف بابن شاهين: أمير، من المماليك، اشتهر بمصر، كان من المولعين بالبحث، ولد ببيت المقدس، وتعلم بالقاهرة، وولي نظر الإسكندرية، وأتابكية حلب؛ وشكا نائبها منه، فاعتقل وسجن بقلعتها مقيدا، ثم أطلق، وتوفي في طرابلس،كتبه نحو ٣٠ مصنفًا.

(٢) السهيلي (٥٠٨ - ٥٨١ هـ = ١١١٤ - ١١٨٥م) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي: حافظ، عالم باللغة والسير، ضرير، ولد في مالقة، وعمي وعمره ١٧سنة، نبغ، ورحل لمراكش، فأقام يصنف كتبه إلى ان توفي بها إلى سهيل من قرى مالقة وهو صاحب الأبيات التي مطلعها: (يامن يرى ما في الضمير ويسمع انت المعد لكل ما يتوقع).

(٣) محب الدين الطبري: (٦١٥-٦٩٤هـ) حافظ فقيه شافعي أحمد بن عبد الله، أبو العباس، كان فقيه الحرم المكي، لقب بفقيه وشيخ الحرم ومحدث الحجاز.

(٤) ابن المدبر (٠٠٠ - ٢٧٩ هـ = ٠٠٠ - ٨٩٣م) إبراهيم بن محمد بن عبيد الله، أبو إسحاق: وزير، من الكتاب المترسلين الشعراء، من أهل بغداد، تولى ولايات جليلة، وتوفي ببغداد.

(٥) ابن سيد الناس (٦٧١ - ٧٣٤ هـ = ١٢٧٣ - ١٣٣٤م) محمد بن محمد بن =

والصفديّ[١] وابن ناصر الدمشقي، وغيرهم ﭫ أجمعين، ولفظ السهيليّ بعد إيراد حديث الحاكم وصحَّحه ابن مسعود قال: سئل رسول الله عن أبويه فقال: «**ما سألتهما ربي فيطيعني فيهما، وإنِّي لقائم يومئذٍ المقام المحمود**»[٢] قال: ففي هذا الحديث تلويح بأنَّه يشفع فيهما في ذلك المقام ليوفقا للطاعة عند الامتحان الذي يقع يوم القيامة كما ورد في عدة أحاديث، قال المحبُّ الطبريِّ: والله تعالى قادر على أنْ يحيي أبويه ﷺ حتى يؤمنا به، ثم يموتا ويكون ذلك ممَّا أكرم الله به سيد الأولين والآخرين، وقال القرطبي: ليس إحياؤهما وإماتتهما له ﷺ

= محمد بن أحمد، ، اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين: مؤرخ، عالم بالأدب، من حفاظ الحديث، له شعر رقيق، أصله من إشبيلية، مولده ووفاته في القاهرة، من أشهر تصانيفه :عيون الأثر.

(١) الصفدي (٠٠٠-٦٩٦ هـ = ٠٠٠-١٢٩٦م) يوسف بن هلال بن أبي البركات جمال الدين الحلبي الحنفي، أبو الفضائل طبيب، كانت له معرفة بالأدب والفقه، وفيه تعبد ورفق بالفقراء، يؤثر مرضاهم بالمداواة ويبرهم بما يواتيهم من الطعام والشراب.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، وجاء في كنز العمال من حديث عبد الله بن مسعود ﭬ.

بممتنع عقلًا ولا شرعًا، فقد ورد في القرآن إحياء قتيل بني إسرائيل حتى أخبر بقاتله، قلتُ وعلى القول بصحَّة إحيائهما بعد موتهما فيكون ذلك الإحياء مثل إحياء من قال لهم الله موتوا ثم أحياهم، وعلى ذلك فما آمن أبوا النبي ﷺ إلَّا في زمن تكليفهما، فكأنَّما آمنا به قبل أنْ يموتا كما قال بعض المحققين في سجدة أهل الأعراف من أنَّ ميزانهم ترجح بتلك السجدة يوم القيامة ثم يدخلون الجنة مع أنَّها ما وقعت إلا بعد موت، ويوم القيامة يرجى له وجه إلى الدنيا ووجه إلى الآخرة والله أعلم، وكان الإمام أبو بكر ابن العربي المالكي الفقيه المحدث يقول: ما عندي أحد أشد أذى لرسول الله ﷺ ممَّن يقول: إنَّ أبويه في النار، وفي حديث مسلم: «**لا تؤذوا الأحياء بسبِّ الأموات**[1]»؛ فيحرم جزمًا أنْ يقال: إنَّ أبوي النبي ﷺ [٤٧/ب] في النار، ا.هـ، قال الشيخ جلال الدين خاتمة حفاظ مصر رحمه الله: وقد صرَّح جماعة كثيرة بأنَّ أبوي النبي ﷺ لم تبلغهما الدعوة والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

(١) رواه الحاكم وصححه وابن سعد وابن عساكر في تاريخه وهناد بن السري في الزهد

[الإسرَاء: ١٥]، وحكم من لم تبلغه الدعوة أنَّه يموت ناجيًا، ولا يعذب ويدخل الجنة قال: وهو مذهبنا لا خلاف فيه بين المحققين من أئمتنا الشافعية في الفقه والأشاعرة في الأصول، ونصَّ على ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه، ونبَّه على ذلك الأصحاب ثم قال: وَممَّا يوضح ذلك أنَّهما لم تبلغهما الدعوة؛ أنّهما ماتا في حداثة سنه صلى الله عليه وسلم، وصحح العلائيُّ(١) وغيره أنَّ والد رسول الله عاش من العمر ثماني عشرة سنة، ووالدته ماتت في حدود العشرين، ومثل هذا العمر لا يسع الفحص عن المطلوب في التوحيد على القول بأنَّ الله تعالى لم يحيهما حتى آمنا به، مع أنَّ ذلك الزمان الذي كانا فيه كان زمان قد عمَّ فيه الجهل والفترة، انتهى، قال الإمام أبو بكر الأنصاري(٢) - قدس سره - في كتاب عقود اللآل: قال القطب الغوث العارف الشريف شيخنا

---

(١) العلائي (٦٩٤ - ٧٦١ هـ = ١٢٩٥ - ١٣٥٩م) خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الدمشقي، أبو سعيد، صلاح الدين، محدث، فاضل، بحاث، ولد وتعلم في دمشق، ورحل رحلة طويلة، ثم أقام في القدس مدرسًا فتوفي فيها، مؤلفاته كثيرة.

(٢) أبو بكر بن محمد بن علي بن عبد المحسن الأنصاري من نسل الصحابي أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، توفي سنة (٩٦١هـ) له كتاب (عقود اللآل).

وسيدنا السيد محيي الدين أحمد أبو العباس ابن الرفاعيِّ رضي الله عنه ونفعنا والمسلمين بعلومه وبركاته: أجمع أولياء الله العارفون به واتفقوا على أنَّ أبوي النبي ﷺ في الجنة ولهما عند الله تعالى المنزلة الرفيعة والرتبة الشريفة وهما رضي الله عنهما من أهل الإيمان، ولا يشك في ذلك إلَّا من اسودَّ قلبه وساء مع نبيه الكريم أدبه، وكذلك آباء الأنبياء والمرسلين وأمهاتهم، فكلهم من أهل الإيمان، ونبينا ﷺ عمود نسبه الشريف من آبائه وأمهاته الطاهرين من أبيه السيد عبد الله الأنور، وأمه السيدة آمنة الطاهرة إلى [٤٨/أ] سيدنا أبي البشر آدم، وأم البشر حواء عليهم السلام كلُّهم مؤمنون موحدون تسلسل فيهم الخير والبركة والإيمان والتوحيد ونكاح الإسلام، وحفظهم الله من سفاح الجاهلية ومن عبادة الأصنام والشرك، واتفقت كلمة القوم على أنَّ من خالف هذا القول يكون مؤذيًا لرسول الله ﷺ مفارقًا طريق الصواب:

الخير في الهادي وفي آبائه
وأمهاته الخيار البرَرة

عصابة من كلِّ شرك وخنا
مصونة محفوظة مطهرة

جـــاء بـــذا الـــكـــتـــاب والـــســـنـــة و

الأخـــبـــار والـــروايـــة الـــمـــعـــتـــبـــرة

ومـــن يـــرى تـــنـــقـــيـــصـــهـــم عـــقـــيـــدة

فـــهـــو مـــن الـــقـــوم الـــلِـــئـــام الـــفـــجـــرة

الأنبياء عرفت إعظامهم

والأولـــيـــاء والـــكـــرام الـــســـفـــرة

انتهى، وفي حاشية خاتمة المحققين شيخ مشايخنا الشيخ علي الشبراملسي(١) على الرملي(٢) في باب الجنائز ما نصه: قال العلامة الشهاب ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مولده ما نصُّه: كثر الاختلاف عند الناس في أبويه هل هما مؤمنان في الجنة أو لا؟ والذي عليه جماعة محققون محدثون جامعون بين المعقول والمنقول أنَّهما ناجيان، انتهى، وكتب العلامة ابن قاسم على

(١) الشبراملسي: علي بن علي الشبراملسي أبو الضياء نور الدين (٩٩٧-١٠٨٧هـ) فقيه شافعي مصري له مصنفات كثيرة نافعة في الفقه الشافعي.

(٢) الرملي (٩١٩ - ١٠٠٤ هـ = ١٥١٣ - ١٥٩٦م) محمد بن أحمد بن حمزة، شمس الدين، فقيه الديار المصرية في عصره، ومرجعها في الفتوى، يقال له: الشافعي الصغير، نسبته إلى الرملة من قرى مصر ومولده ووفاته بالقاهرة، ولي إفتاء الشافعية، وجمع فتاوى أبيه، وصنف شروحًا وحواشي كثيرة.

قوله: ناجيان: لا شك في ذلك وأنَّ لهما من فراديس الجنان غاية التنعيم ومزيد التكريم، قال الشبراملسي: أقول: من لم يقل بما قاله ابن قاسم والجماعة فهو من المسيئين الأدب في حق سيد المؤدبين والعالمين، فالذي امتلأ قلبه بحبه يجب عليه اعتقادًا أنَّه لا يؤذى في أبويه؛ فلئِن عذبا فأنا عنهما فداء، بل هُما في أعلى عليِّين مع النبيِّين الصديقين والشهداء والصالحين، كيف وأشرف الخلق بضعتهما؟ [٤٨/ب] وقد حصل لهما بذلك مزيد الافتخار، فنعوذ بالله من سوء فكر أو حكم يؤول بصاحبه إلى النار، ثم قال ابن حجر(١) في مولده: اعلم أنَّ الذي قرره وأطبق عليه الأئمة الأشاعرة الشافعية وغيرهم من أئمة الأصول والنقل والفقه أنَّه لا حكم قبل ورود الشرع، وأنَّ تحكيم المعتزلة العقل باطل، وكذا قول البعض أنَّ الإيمان وحده يجب بالعقل؛ لأنَّ أدلته بلغت من الشهرة مبلغًا لا يخفى على أحد، وليس كما زعموا؛ لأنَّهم إنْ أرادوا فرض ذلك بعد ورود الشرع، فإنَّ كان الشرع بلغه فلا كلام فيه لأنَّا لا نمنع أنَّ الدليل

(١) هو الإمام شيخ الإسلام ابن حجر الهيثمي رَحِمَهُ اللهُ.

العقليَّ يؤيد الدليل الشرعي، وإن كان لم يبلغه فأي دليل يدل على الإيمان بخصوص ذلك، فإن أرادوا فرضه قبل ورود الشرع فقد قامت الأدلة المقررة في الأصول أنَّه لا حكم قبل ورود الشرع ومن جملتها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسرَاء: ١٥] معناه لا عذاب على أحد في شيء فعله إلا بعد أن تبلغه دعوة نبيٍّ له ولم يؤمن به، وإذا تقررت هذه القاعدة التي مهدها الأشاعرة والآية ظاهرة أو صريحة فيها، علم أنَّ الحق الواضح الجلي الذي لا غبار عليه أنَّ أبوي النبي ناجيان لا عقاب عليهما، وكذا أهل الفترة جميعهم وهم: من لم يرسل إليهم رسول يبلغهم الإيمان به، فلا يرد من كان في زمن عيسى ومن قبله من العرب؛ لأنَّهم - أعني بني إسرائيل - لم يرسلوا إلى العرب، فالعرب في زمن أولئك أهل فترة، كما أنَّ الصحيح -أنَّ أحدًا غير نبينا لم يرسل إلى الجن وإنَّما كان إيمان فرقة من الجن بموسى تبرع منهم كما أن تنصّر أو تهود بعض العرب تبرع منه، فهم مع ذلك باقون على كونهم من أهل الفترة؛ لأنَّ تلك الرسل لم يُؤمروا بدعائهم إلى الله تعالى وتكليفهم بالإيمان، فلزم بقاؤهم على الفترة [٤٩/أ] وقد تقرر في أهلها أنَّهم لا

عذاب عليهم، نعم من ورد فيه حديث صحيح من أهل الفترة بأنَّه من أهل النار، فان أمكن تأويله فذاك، وإلا لزمنا أن نؤمن بهذا الفرد بخصوصه، ونُحيل الأمر فيه على أمر علمه الله تعالى منه عذبه به، فتأمل هذا الذي قررته ووضحته لتستريح من اختلافات مبنيَّة على مجرد الظواهر من غير تحقيقٍ للمأخذ ولا تمهيدٍ للقواعد، ومن سلك في الأدلة مسلك القول بمجرد الظواهر، ولم ينظر لِما قرره الأئمة أتعب نفسه بل ربما وقع في ورطة يعزُّ استدراكها، انتهى بالاختصار، قال الإمام أبو بكر ابن العربي: من قال: إنَّ آباء النبي أو أحد منهم في النار فهو ملعون لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧]، ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبيه أنَّه في النار، وقد ورد من عدة طرق اعتمد عليها الجلال السيوطي وحافظ الشام ابن ناصر وغيرهما من المتقدمين والمتأخرين أنَّ الله تعالى أحياهما له وآمنا به ونفعهما إيمانهما معجزة وخصوصية له ﷺ، ولم يثبت عنهما بل ولا عن أحد من آبائه من آدم إلى عبد الله أنَّ أحدًا منهم كان يعبد الأصنام إلَّا ما ثبت في آزر بناء على أنَّه أبو إبراهيم عليه

الصلاة والسلام، وقد رجح بعض الأئمة أنّه كان عمه لا أباه، وثبت أنَّ أهون أهل النار عذابًا أبو طالب، فلو كان الأبوان في النار لكانا أهون عذابًا من أبي طالب وأحق بذلك منه، والذي ندين الله تعالى به أنَّهما من الناجين والله سبحانه وتعالى أعلم، قال الحافظ جلال الدين السيوطي نوَّر الله ضريحَه بالرحمة:

إنَّ الـذي بـعـث الـنـبـي مـحـمـدًا
أنـجى بـه الـثـقـلـيـن ممَّـا يـجـحـف

فـلأمـه وأبـيـه حـكـم شـائـع
أبـداه أهـل الـعـلـم فـيـمـا صـنـفـوا

والـحـكـم فـي مـن لـم تـجـئـه دعـوة
أن لا عـذاب عـلـيـه حـكـم يـؤلـف

فـبـذاك قـال الـشـافـعـيَّـة كـلّـهـم
والأشـعـريَّـة مـا لـهـم مـتـوقـف

وجـمـاعـة أجـروهـا مـجـرى الـذي
لـم يـأتـه خـيـر الـدعـاة الـمـسـعـف

وبـسـورة الإسـراء فـيـه حـجـة
وبـنـحـو ذا فـي الـذكـر آي تـعـرف

ولـبـعـض أهـل الـفـقـه فـي تـعـلـيـلـه
مـعـنـى أرق مـن الـنـسـيـم وألـطـف
ونــحــا الإمــام الــفــخــر رازي الــورى
نــحــوًا بــه الآذان قــد تــتــشــنــف
إذ هـم عـلـى الـفِـطَـر الـتـي ولـدوا ولـم
يـظـهـر عـنـاد مـنـهـم/ وتـخـلـف
قـال الأولـى وَلـدوا الـنـبـي مـحـمـدًا
كـل عـلـى الـتـوحـيـد إذ يـتـحـتـف
مـــن آدم لأبـــيـــه عـــبـــد الله مـــا
فـيـهـم أخـو شـرك ولا مـسـتـنـكـف
فـالـمـشـركـون كـمـا بـسـورة تـوبـة
نـجـس وكـلـهـم بـطـُهـر يـوصـف
وبــســورة الــشــعــراء فــيــه تــقــلــب
فـي الـسـاجـديـن فـكـلـهـم قـد شـرفـوا
هـذا كـلام الـشـيـخ فـخـر الـديـن فـي
أســراره هَــطـلــت عــلــيــه الــذرف
وجــزاه ربُّ الــعــرش خــيــر جــزائــه
وحـبَـاه جـنـات الـنـعـيـم تـزخـرف

قال السيد البرزنجي: «والعجب من منلا القاري الهروي من متأخري الحنفية أنه شرح الفقه الأكبر ظناً منه أنه للإمام أبي حنيفة النعمان ﵁ وإنما الذي شرح عليه نسخة أخرى تسمى بالفقه الأكبر لأبي حنيفة محمد بن يوسف النجاري، فيها ما بنى عليه قوله من كفر الأبوين الشريفين، كما ذكر ذلك العلامة ابن حجر في فتاويه، فقد صح أن النسخة التي شرح عليها الهروي ليست لأبي حنيفة ﵁ غايته إنما نشأة الاشتباه من اشتراك تأليفين في الاسم واشتراك المؤلفين في الكنية ولم يظفر منلا علي إلا بنسخة واحدة فظن أنها هي التي للإمام، فشرحها وقد تعدى طوره في الإساءة في حق الأبوين الشريفين، ثم إنه ما كفاه ذلك حتى ألف فيه رسالة وقال في شرحه على الشفا متبجحاً مفتخراً بذلك إني ألفت رسالة في كفرهما؟، فليته إذ لم يراعِ الأدب في حق رسول الله ﷺ حيث آذاه بذلك، كان استحيا من ذكره ذلك في شرح الشفا الموضوع لبيان شرف المصطفى، وقد سلط الله عليه بعض معاصريه وهو الإمام عبد القادر الطبري فألف في الرد عليه رسالة أغلظ عليه فيها، وشنع عليه تشنيعاً بليغاً، وقال في آخر رسالته: ومن غريب الاتفاق أنني لما

تصديت للرد عليه وعقدت مجالس درس بالمسجد الحرام في بعض ليالي شهر ربيع الأول للتكلم على أحكام المولد الشريف، وصرحت بالرد في تلك المجالس لأن يظهر نفسه للمناظرة من الجم الغفير، رأيته في المنام كأنه ساكن بالمحل المسمى بقصر الغوري بباب إبراهيم وكأني صعدت إليه للتكلم معه فرأيت المحل على خلاف ما كنت أعهده في اليقظة، كان درجة من حديد شبك على صفة مقام سيدنا إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، فصرت أدخل في كل مقعد لأفتش عليه فلم أجده فيه حتى صعدت إلى أعلى المحل فوجدته، فكأني ضربته ورفعته بيدي، فإذا هو ساقط من شاهق القصر، فاستيقظت فأخبرت في الصباح بأنه متوعك من سقطة وقعت له فما عاش بعد ذلك إلا يسيراً ومات» انتهى.

ثم قال البرزنجي قال ابن سعد في الطبقات: أنبأنا عفان بن مسلم عن عماد بن سلمة عن ثابت عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث قال العباس: يا رسول الله، أترجو لأبي طالب خيرًا؟ قال: «**كلُّ الخير أرجوه من ربي**»؛ فإذا كان هذا رجاؤُه

لأبي طالب مع كونه [٥٠/ب] أدرك البعثة فلأبويه أولى، ا.هـ، قال الحافظ ابن ناصر الدمشقي في كتابه مورد الصادي بعد أنْ أورد حديث إحياء الأبوين الشريفين من طريق الخطيب:

حبا الله النبيَّ مزيد فضل
على فضل وكان به رؤوفًا
فأحيى أمّه وكذا أباه
لإيمان به فضلًا منيفًا
فسلِّم فالقديم بذا قدير
وإن كان الحديث به ضعيفًا

وممَّا أفاده العلامة الشيخ سليمان الزيات(١) عن بعض مشايخه أنَّ ابن(٢) الشيخ اللقانيِّ بات ذات ليلة يتصفح الأحاديث الواردة في إسلام أبوي النبي ﷺ ليعلم رتبتها عند المحدثين، فحصل له نعاس واحترقت عمامته من المصباح،

---

(١) من علماء الأزهر الشريف شافعي المذهب.

(٢) هو عبد السلام بن إبراهيم اللقاني (٩٧١-١٠٧٨هـ) المصري المالكي، فقيه، متكلم، صوفي، له شرح على أرجوزة التوحيد التي ألفها والده الإمام إبراهيم اللقاني في العقائد.

فلمَّا أصبح غيَّر العمامة وخرج مجيبًا دعوة بعض حكَّام مصر، فلقيه بياعُ فجل فقال له قل:

آمـــنـــت أنَّ أبـــا الـــنـــبـــي وأمـــه
أحـيـاهـمـا الـحـي الـقـديـم الـبـاري

حـــتـــى لـــه شـــهـــدا بـــصـــدق رســـالـــة
حـقًّـا فـذاك كـرامـة الـمـخـتـار

صـح الـحـديـث ومـن يـقـول بـضـعـفـه
فـهـو الـضـعـيـف عـن الـحـقـيـقـة عـاري

فالتفت إليه الشيخ فلم يجده، انتهى، وقد صنَّف في الرد على الواهم علي القاري رسالة مخصوصة الشيخ العلامة محمد المرعشي[1] ويعرف بساجقلي زادة - رحمه الله - سماها: (رسالةُ السرور والفرح)، قسَّمها إلى ستة فصول، وفَّق في الفصل الثالث بين أقوال الأشاعرة والماتريدية في المبحث المقصود،

(١) المرعشي (٠٠٠ - ١١٤٥ هـ = ٠٠٠ - ١٧٣٢م) محمد بن أبي بكر المرعشي، المعروف بساجقلي زاده، فقيه حنفي من العلماء، مشارك في معارف عصره، من أهل مرعش، قام برحلة دراسية التقى بها في دمشق بالشيخ عبد الغني النابلسي وتصوف على يده وعاد إلى مرعش فكانت له حلقة لتدريس الطلاب، وصنف نحو ٣٠ كتابًا ورسالة.

وأعظم شأنَ الأبوين الطَّاهرين، وقال بعد ذكر اسميهما عليهما السلام، وخدم مقاميهما الكريم فدافع عنهما هذا الصائل اللَّئيم، وخلاصة ما قال بعد أبحاث جميلة ونصوص جليلة، وأما علي القاري فلعل البرودة أثرت في رأسه فاختلَّ عقله فصلَّى الله على رسول الله وسلم على والديه، ونقطع بأنَّهما في الجنة؛ لأنَّا حنفيون [٥١/أ] ماتريديون، انتهى،

وقد ذكر القطب عبد الوهاب الشعرانيِّ – قدَّس الله روحه – في كتابه مختصر تذكرة القرطبي ناقلًا عن الجلال السيوطي – قدَّس سره – أنَّه ذكر نجاة أبي طالب في عدة من مؤلفاته، بل نصَّ على إيمانه، ونقل بعض حفاظ الإسلام أنَّ الله تعالى أحياه كرامة له ﷺ، وآمن به كما أحيى له أبويه وآمنا به، أقول: وقد ألف جماعة من كمَّل العلماء في نجاة أبي طالب عمِّ النبي ﷺ كتبًا مباركة وأثبتوا فيها أنَّه مؤمنٌ موحِّدٌ مصدقٌ برسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وأنَّه من الناجين وقد منَّ الله بكرمه وفضله عليَّ فاندرجت في سلكهم، وألَّفت رسالة حافلة سميتها: (السَّهم الصائب لكبد من آذى أبا طالب) رصَّعتها بتحقيقات فائقةٍ وطرَّزتها بأبحاث رائقة تهزُّ كلَّ مؤمنٍ موحِّدٍ محبٍّ لرسول

الله ﷺ إلى القول بها، والإيمان بمضمونها.

هذا خلاصة ما قرره العلماء وأورده الأئمة الحنفاء من فرائد العقائد الواجبة على كل فرد من أفراد الموحدين أمَّة النبيِّ العظيم علَّة المخلوقين، وإنَّه قد أحسن الله إلي وتفضل بجمعها وتأليفها عليَّ؛ فجاءت على هذا المنوال الظريف المقبول، جعلها الله خدمة صالحةً وافدة على الباب الإلهيِّ من طريق القبول، وذريعةً شريفةً لاستجلاب نفحات روح المصطفى الرسول، والله أسأل أنْ يمنَّ علينا ببركة محبة سيِّد المرسلين حبيب الملك العلَّام بالعفوِ والعافية وحسن الختام، وأن يجعلنا من المحشورين بزمرة هذا النبيِّ الأمين عليه أفضل صلوات ربِّ العالمين، والحمد لله حمدًا تندفع به الشكوكُ والأوهام، وتحسُن به الخواتيم في الدنيا ويوم القيام، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

فهرس الموضوعات

الإهداء ٥

مقدمة ٧

منهج التحقيق ١٠

وصف النسخة الخطية للكتاب ١١

ترجمة موجزة للمؤلف ١١

١.(فريدة في معرفة الخالق سبحانه وتعالى): ٢٠

تنبيه: اعلم أنَّ في هذا البحث مذاهب: ٣٠

٢.(فريدة): الحسن والقبح: ٣٢

٣.(فريدة): مقالتان عظيمتان في التوحيد ٣٥

٤.(فريدة): المتشابهات ٤٦

ومن الأحاديث المتشابهة ٨٠

٥. (فريدة): شهادة التوحيد ٨٣

شهادة أن لا إله إلا الله ٨٣

٦.(فريدة): شهادة أن محمداً رسول الله ٩٣

٧.(فريدة): أركان الإسلام الخمسة ١٠٢

٨.(فريدةٌ): مسائل في العقيدة ١١٢

٩.(فريدة في حقيقة الإيمان): ١٣٥

١٠.(فريدة في أنَّ الإيمان هل يزيد أو ينقص أو لا؟): . ١٤١

١١.(فريدة في معنى الكفر عند كل طائفة): ١٤٤

١٢.(فريدة في تقسيم الإيمان): ١٤٨

١٣.(فريدة): في معرفة سيدنا محمد ﷺ ١٥٨

بحث لطيف: ١٦٦

١٤.(فريدة): ترتيب أفضلية الصحابة رضوان الله عليهم ١٧٥

١٥-(فريدة): في نجاة والديّ المصطفى ﷺ وأنهما من أهل
الجنة وكذلك أبو طالب ١٧٨